النهايات البعيدة

قصص قصيرة

عادل عبد الرازق

سنابل للكتاب

٥ شارع صبرى أبو علم

باب اللوق - القاهرة

الإدارة:

(+202) 23 92 65 93
(+202) 01001094302

المكتبة:

(+202) 23 93 56 56
E-mail
Sanabil_bookshop90@yahoo.com
Ahmed_mmorgan@yahoo.com
Face: sanabil bookshop

المدير العام:

أحمـد مرجـان

النهايات البعيدة

المؤلف:

عادل عبد الرازق

تنفيذ الغلاف

محمد سيد حسن

رقم الإيداع: ٢٤١٢ / ٢٠١٦

الترقيم الدولى: 978-977-5255-24-2

الطبعة الأولى: ٢٠١٦

حقوق الطبع محفوظة

إهداء

إلى كل الأحبة...

إلى من جعلت هذه القصص حقيقة واقعة عندما قرأتها....

إلى أمي....

وشكر خاص للأصدقاء...

هشام عيد - مصطفى سالم - أحمد معوض.....

الجســـر

كان ذلك يوم الأربعاء.. عندما جلس فى عزلته يتساءل لماذا كا
كل هذا ؟ وهو يشعر بإحساس رهيب باللاجدوى يمتلك عليه أمره
كان يريد أن يفهم لماذا.. لا يعنيه كيف تم؟ بل الأهم أن يفهم لماذا ؟
لماذا يجب عليهما أن يفترقا ؟

كان ذلك عهده مع كل شىء، فإذا ما عرف لماذا امتلأت روح
بوميض من السرور الداخلى.. كلمعة البرق.. ولكن حين يسيط
عدم الفهم، يستوى كل شىء مع أي شيء في هذه الفترة – فتر
عدم الفهم – بدا محمومًا لإنهاء بعض لوحاته التى حملها معانى
يراها سواه، عن ظلال الابدية.. عن جسر نحو الافق ممتد!! ولك
لم يزده ذلك إلا شعورًا بأنه مجرد.

في ذلك المساء تسللت إليه ذكريات الأيام الماضية.. ووجد طيف
يقترب منه، ويملأ عليه المكان.. ولكن هل قدر عليه أن يحيا بدونها؟

إن الحتمية التي يشعر بها.. حتمية الفراق.. جعلته كسج
ينتظر حكم الإعدام.. يتشبث بآخر قدر من المتعة، مع علمه ا
سيتركها فى النهاية ويبقى وحيداً.. مجرداً.. وتساءل.. كمن يبح

عن مهرب.. أيهما أهون فراق الأحياء أم فراق الموت ؟ عندما تتردد كلمة الموت يبدو الأفق مسدودًا والقيد يشتد من حوله، أما فراق الأحياء فبين عذابه أمل الرؤية.

لم يكن ليحتمل فكرة تذكرها والتراب يملأ عينيها بعد ما كان يطالع الفجر فيهما.

تململ فى جلسته تلك.. غادر حجرته، كأنما يهرب من الموت إلى أين ؟

لم يكن يدرى !! فقد شمله ضباب كثيف، واغرقه غيابها فى ذهول.

وكومضة نورانية – جاءته فكرة – ان فراق الموت قد يكون بعده التلاقى فى ظلال الأبدية تلك التى مافتئ الناس يتكلمون عنها، وينتظرونها.

تمنى لو واتته الفرصة ليعلن لكل الناس بطريقة مناسبة وعلنية انه بعدها لا فائدة من هذه الحياة.

كان لابد من عمل مثير يتخطى به ذلك الحاجز الرهيب تلك القشعريرة التى تُحدثها هالة البطولات لابد من لقاء الموت وجهاً لوجه.

من خلال اوراقه لم نعرف متى خاض التجربة.. غير أن وميضه الداخلي بدا بشكل حيوى وجنونى حينما بدأ يستعد لخوض تجربته.. كان يتلهف لرؤيتها.

فيما مضى وحينما كان يلتقيان ويغمرهما ذلك الاحساس المخملى بأنه من الممكن ايقاف الزمن ويجمعهما تيار دافئ من الاستسلام لأحلام اليقظة.. بأنهما معا للأبد.. كان كل منهما يدرك في أعماقه أن ما يحدث لايمكن ان يستمر.. كان يرى امانيه بين يديه لكنها محال. والشيطان بداخله يصور له حياته كشئ عقيم.

وليس له من جسر للحياة الأبدية سوى هذه التجربة.

كيف يعبر الجسر ؟ كان هذا ما يشغله، تراءت له صور البطولة وتنوعها، هل يجتاز الجسر سريعاً - أم بطيئاً. انه يضيق باحساسه بالمسئولية تلقاء ما سيجنيه الآخرون من لوعة وأسى.

لكن من عرف الحقيقة، هل يقتله التردد هكذا وهو مقدم على الأبدية ؟.

لكن يقتله اكثر ان تنتهى تجربته العظيمة ومشروعه المثير إلى كابوس مزعج من المحاليل.. وصرخات من نوبات القئ المستمر والغسيل المعوي.

انه لاحتقار لذاته التى لم ترحل بجلال بل ظلت على قيد الحياة ملوثة بما يجلب له مدى الحياة عظيم الغثيان.

ظل في غرفته بعد فشله العظيم أياماً لم يحدث او يرَ إنساناً. لم يكُ دافعه انطواءً او يأساً بقدر ما كان ضيقاً بالفشل وبُعداً عن التافهين.

كان كل ماحوله ظلالاً باهتة بالنسبة للأبدية التى كان يسعى اليها.

ولازمه إحساس لم يدر مبعثه.. كومضات من النور – رآها وهو فى طريقه للأبدية او وهو عائد منها للحياة.. كلمعة البرق.. انبثق من داخله صوت يهتف اننى لست اتمنى عودة تلك الحياة فحسب بل اتمنى لو عادت تلك اللحظات القليلة التى تسربت من يدى دون ان اكون معها كى احياها معها ثانية وبصورة أعمق.

فى رحلته تلك – للحياة الأبدية – كان يشعر انه معها.. ليس مجرد خيال أو وهم بل حقيقة امامه كما لو كان يقينا.. بدا له انه اكتسب القدرة على أن يكون في مكانين اثنين فى نفس اللحظة وان روحه تهيم معها.

أدرك انه في مقدوره أن يخلق كوناً خاصاً به من صنعه ليحيا معها.. ايقن انه يستطيع ان يكون معها غير مبال بالآخرين.

أراد أن يسترجع هذه اللحظات، شمله احساس بالقوة والرغبة فى الاستمرار، تدفق فى خلاياه سرور ليس مبعثه الخلاص والنجاة فحسب بل شعوره بأن ذلك هو بداية طريق الأبدية.

وكما تفعل الكاميرا وتثبت لحظة من الزمن حاول ان يستعيد كل ما مر بهما يثبته على السطور كى يمنحه الأبدية، ويحيا معها فى ظلال تلك الأبدية. ومن اللحظات التى ثبتها حين ذهبا فى رحلة وجلسا إلى جذع شجرة ممتد فى صلابة وقوة. وتمنى عليها ان

يدرك سرها، وعند ذلك علم ان النشوة الغامرة التى تأخذه.. إلى ذلك النور الفضى.. هناك.. هناك في ابعد مكان عن الأرض والناس.. ويتركه معها.. هي دون تفاصيل او حواجز.. انه معها.

بعدما ثبت تلك اللحظة.. قام إلى أركان غرفته.. كونه الخاص.. وكأنه يتلمس وجودها وراح يغلق الأبواب والنوافذ عن العالم الخارجى عاد إلى اوراقه ليدون تلك اللحظة "ذهبت إليها وعقلى يتلهف لرؤيتها فى تلك اللحظة التى تلاشت عندها كل الأشياء والتى بعدها مباشرة جاءنى يقين نورانى بأن روحينا التقيا فى ذلك اللقاء الممتد حتى الفجر اقول فى تلك اللحظة عرفت معنى الحياة".

وبعد ذلك وجدناه يحتضن صورة تجمعهما وقد عبر نهاية الجسر إلى الأبدية التى كان ينشدها وقد كتب عبارة واحدة.

خصلة من ليلها الطويل وضحكة بين الزهور وتوافق فى حركة الأيدى ورغبة عميقة فى البقاء على تلك الحالة للأبد.

الطريق

منذ أن جاء إلى هذه المدينة لم يؤنس وحدته غير هذا الطريق.

ولم يكن له سوى الأسفلت صديق.

كان يجلس في شرفته يحدثه بكل ما يدور بذهنه أو يخطر على باله.

كان يحكي له عن كل ذكرياته وكان الطريق يصغي إليه.

ومن شرفته العالية يرى العابرين عليه، الكل يمضي والطريق باق في مكانه، على مر الزمان.. وحينما قرر ذات يوم أن ينزل من مسكنه ويعيش وسط زحام الطريق، كي يعرفه عن قرب، التقت عيناهما ولمع بريق أخاذ من عينيها.. كأنها دهشت لرؤيته أو كانت تتوقعها.. لم يستطع أن ينسى ذلك.

أن لحظة تبادلهما النظرات كان يمكن أن تكون أمرا عاديا.. لكن في عالمه الوحيد وفي غربته كان ذلك حدثاً لا ينسى.

صمم على أن يتقرب إليها.. والتقيا وانسابت الكلمات والأفكار بينهما.

كان هناك شيء أقوى منهما يجمعهما.

كانا يمضيان ساعات وأياماً دون أن تدفعهما الحاجة إلى غير التحديق في بعضهما البعض.

كان شيء كالمجال المغناطيسي يحدث دوائر عظيمة الجذب بينهما، مجال ليس فيه مكان لسواهما.

لكن دائما كانت تشعره بأن ما يحدث لن يستمر طويلاً، وتحاول أن تجعله ينسى تلك اللحظة التي التقت فيها عيناهما.

كان يعتقد أن السر وراء ابتعادها عنه، هو ضعف صبرها ورغبتها في الهروب من تلك المغامرة، كان يتصور دائماً أنها زوجة أو في طريقها إلى أن تكون كذلك.

لم يفاتحها أبدا بما في فكره، وكان يجعلها تقدر متى تلقاه ومتى تتركه، كان يكفيه أن يكون معها. لم يكن يدري أنها حين التقت به كانت قد قررت أن تنهي حياتها، وتتخلص من تلك الآلام التي تحاصر روحها، كان الحاضر يطاردها دوما.

ولولا أنها رأته في الطريق.

وأنست منه الأمل حين ابتسم لها.

وبدا كأن الزمان يعطيها الفرصة كي تعوض ما مضى من عمرها، فهي وعلى غير ما يعتقد.. كانت تعرفه من زمن بعيد – كانت ترقبه دائما وتمني النفس بيوم لقائه.

لكنه كان متعالياً في وحدته، عاكفاً على كتبه، مستغرقاً في حياته

الخاصة لا يأبه بالناس أبداً. كانت تشعر بروحه وهي تجوب كل الأمكنة.

ولكنه غافل عمن حوله من العابرين على الطريق.

ولطالما اختلست من ذويها بضعة لحظات تهرب من رقابتهم وتذهب إلى الطريق.

تتطلع إليه وهو جالس في شرفته يرقب الطريق، عشقه الوحيد، وحتى بعد أن قرر من بيديه أمرها أن تتزوج لم تر مانعاً من ذلك فلن يملك زوجها سوى جسد أما روحها فهي دائماً أبداً هائمة معه هو حتى دون أن يشعر أو يدرك ذلك.

لكن زوجها كان إنساناً رقيق الحس مرهف الشعور لم يشأ أن يمتلك جسد زوجته قبل أن تمتزج روحهما.

كان يريد أن يبني حياته على التفاهم والانسجام والحب بينهما.

وكانت تشعر أن زوجها لا محال بالغ أمره.

فهي لا تستطيع أن ترى عيبا يدفعها إلى النفور منه.

كان شاعراً ذو موهبة حقيقية.. ورغم عدم شهرته إلا أن ما يكتبه كان يحرك أوتار قلبها، ويحدث رعشة رهيبة في روحها.

خافت أن يستولي على روحها وأن تذهب الأيام بذلك الحب الذي عاشت له ومن أجله.

أفزعها أن ترى نفسها غير وفية لمن عاهدت نفسها على الخلود

في حبه.

كانت تشعر بصراع رهيب بين عقلها وروحها.

والأدهى من ذلك أن روحها انقسمت اثنين الأولى تناصر عقلها، والأخرى تهيم بذلك الذي هام حبا بالطريق.

أورثها ذلك الصراع جنوناً يعاودها كلما هم زوجها بلمسها أو التقرب منها.

لم يطق صبراً وفاض به الكيل وأراد أن يعرف حقيقة الأمر.. عجزت عن مواجهته وفرت هاربة.. إلى أين ؟ لا تدري.

قادتها أقدامها إلى الطريق لعلها تراه في شرفته.. في وحدته المتعالية التي أحبتها.. لكن ها هو يسير مثلها على الطريق.. عيناه تبحثان عن شيء.

التمعت عيناها ببريق الحياة واكتشف هو ذاته على بريق عينها.

وانه عاش هذا العمر كله كي يدرك تلك اللحظة.

أصبح يدرك وبوضوح تام أن الحياة كلها بماضيها و حاضرها ومستقبلها بين يديه.

لم يعد هناك زمن، لم يعد هناك ماض أو مستقبل، كان يشعر الآن فقط، أمسك كينونته بيده.. صعدا إلى مسكنه وهناك شعرت بألفة غامرة.

ومرت عليهما أوقات كثيرة يتطلعان إلى الطريق.

وانطلقا صوب الحياة في الطرقات.. في الغابات، تسلقا الجبال،

امتطيا الجياد.

لم يدركا فواصل الزمن من أيام أو ساعات.. غير أنها بين وقت وأخر يعاودها ذلك الصراع القديم. كان يعذبها أن تهرب من زوجها كما العبد المارق وهي ما نشدت سوى الحرية والخلاص.

كان يؤرقها ذلك الانقسام في شخصيتها.

لقد أضحت مجرد عاشقة هاربة من زوجها، وهي التي كانت تبغي أعمق ما في الحياة من الحب والخلود.

قررت ألا تترك نفسها لذلك الصراع.

وفي أحد الأيام خرجت من مسكنه وهو جالس في شرفته مستغرق في أفكاره وتأملاته.

وحين شعر بغيابها ظن أنها سوف تعود، فقد أعتاد منها ذلك

لكن هذه المرة كانت هي الأخيرة.

لم تعد.. وفرت من صراعها العنيف.

وتحررت منه وأسلمت جسدها إلى الموت.

أما روحها فلا زالت هائمة معه.

كانت الحياة بعدها لا شئ سوى الألم.

ولكنه لم يحتمل الاستمرار دونها.

لم يستغل يوما دمع عينيه كي يذهب ذلك العذاب الذي في صدره.

كان يدرك أن العالم أصم ؟!!!.

والبشر جزر متناثرة.

وليس هناك طريق للتواصل فما جدوى البوح بالألم.. ظل يراقب الطريق كما أعتاد.

وفي أحيان قليلة كان يمضي إليه يستعيد تلك اللحظة التي التقت فيها عيناهما.

وعندما يعود إلى مسكنه وإلى ذكرياتهما وإلى تلك الحياة الحقيقية.

كان يشعر بأنفاسها معه تملأ المكان.

كان يحدثها ويحكى لها عما لاقاه من تعب أو سرور.

ويخبرها أن مرور ذلك اليوم يعنى اقتراب لقائهما.

وذات يوم ووجها يقترب منه أغمض عينيه مستسلماً لها، وهي تحتوى رأسه بين يديها، كما في الأيام الماضية، هامسة له بأعذب الكلمات.

وسرعان ما أرتمي في أحضانها وهو يردد: "اليوم تنتهي وحدتي وأكون معك للأبد".

الرسالة الأخيرة

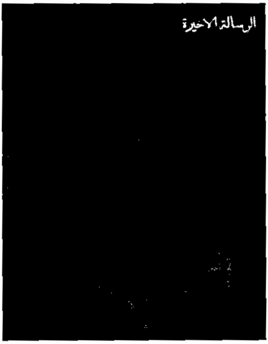

تشابكت لديه الخطوط واصابه الارتباك الذي طالما تحدث عنه، فلقد أصابته آفة عشق الآلة وجلس ينقر على الزر ويحرك الفارة ويضغط الزر للإدخال.

في كثير من الأحيان لم يكن يعرف على وجه التحديد ماذا يفعل؟ كان يجرب...!! في أحد المرات تواصل معها في البداية كان الحديث عن توافه الأمور فنحن في زمن أصبحت الأشياء التافهة هي سيدة الموقف !!

حين تحدث عن البرد، حدثته مذهولة عن ذلك الشتاء الذي شهدته في روسيا حينما كانت درجة الحرارة تحت الصفر، وأسرت إليه بوجود تلك اللمعة القوية والضوء المبهر عند نهاية الطريق.. وكيف ظنت أنه احتفال وأنوار كثيرة في أحد الأبراج الشهيرة هناك ونقلت له الصورة.. عندما رآها أدرك أن ذلك الضوء سيغير حياته، وأراد أن يسير إليه بنفسه، فأخبرته ساخرة أن تلك اللمعة هي ثلوج دائمة عند الأفق.. حيث الحرارة تحت الصفر.. وأن البرد هنا نسمة رقيقة على الوجوه.. في تلك اللحظة أدرك إنها لم تسافر إلى هناك وأنما شاهدت ذلك في أحد المواقع.

في أحيان كثيرة أراد الابتعاد عن السطحية والحديث المعاد.. أراد التواصل كما اعتاد.. مزيد من العمق.. وإدراك الأسرار.. كان يعرف حينما يرى حبيبته أن خلف النظرة يكمن سر الروح وعند الشفاة يسكن القلب ويتلامس النبض.. تذكر كيف كان يمضي يومه معها.. تلك التي تركته منذ عشرين عاماً.. هي بجسدها الرقيق، بروحها المتألقة بوهجها الدائم كلمعة الضوء عند قمم الجبال.

هي بشعرها المعقود خلف رأسها.. إنه يعرف كم يبلغ طولاً ولو لم يره.. يعرف دقات قلبها المتسارعة، حينما ذكر لها حبه.. وردد على مسامعها قصائده.

أما الآن فهو يجلس على كرسيه أمام الشاشة الزرقاء يرى كلمات تتجاوب مع كلماته.. ولكن بلا روح.. لم يكن يدري على وجه التحديد من صاحب هذه الكلمات.. في كثير من الأحيان كان يخشى المفاجأة..

فإنه لا شيء محدد.. إنه يخاطب المجهول ؟!

مع مرور الوقت أصبح جزء من تفكيره مرتبط بها.. كل تفاصيل حياته معها.. حينما يكون مع الأصدقاء يحكي عنها.. في العمل يراسلها عبر الآلة في لحظات خاطفة..

هي محور الحديث تصغيَ إليه كلما ساد السكون ولفه الصمت، كانت ملاذه الوحيد من الوحدة التي كان بها وظل فيها منذ عشرين عاماً في لحظة حميمة من التواصل والاقتراب معها إلى أفق جديدة

حقيقية ظن أنها محبوبته الأولى وأنها عادت بعد الفراق لتلتقي معه، عبر هذه الشاشة الزرقاء.

أراد أن يخطرها بهذا الهاجس، أراد أن يعرف كيف عادت إليه.. كيف حطمت القيود

فتش عن السر.. أخبرته بكل شيء.. كانت مرتبطة وانتهى الارتباط.. خاضت تجربة حب عميقة واكتشفت الخيانة عن طريق الشاشة الزرقاء.

لم تتردد في حسم الأمر.. أنهت العلاقة فهي لا تستطيع أن تعيش مع إنسان خائن وله أكثر من بريد إلكتروني.

أدرك أن في الأمر لبس شديد، فلو كانت حبيبته الأولى.. كانت هي صاحبة القصة، وهو الشريك كيف انقلب الأمر؟ كيف زال السحر؟!!

وحين انتبه أدرك أنه يعيش الماضي.. ويبدد الحاضر بين يديه.. قرر أن يمضي معها.. يستعيد عمراً مضى وأحلاماً تحطمت.. أراد أن يحيا من جديد أخبرها بأنه حين تواصل معها.. سببت له الاندهاش فبعد عشرين عاماً من اليأس في عودة القلب للخفقان وجدها من جديد.

مضى الأمر أكثر أخبرته بدقائق حياتها الجديدة وأن هناك من يريد الارتباط بها.. وأن يقيدها من جديد.. دون تردد.. أخبرها بأنه لا يليق بها.. أنها لا تعيش إلا مع الحرية.. تسارعت الأحداث.. وبدا أن الأمر لا يستغرق سوى لحظة لكي يشعر أنه يمضي العمر معها.

إن التواصل بينهما أسرع من كتابة الحروف على الشاشة والتفاهم أسرع من وصول الرسائل.

في لهفة من تدافع الأحداث أرسلت صورتها.. (وعندما رآها تملأ الشاشة أخذه الشبه بينها وبين من كانت لديه العمر من عشرين عاماً) ؟؟.

أقبل عليها أكثر... يريد أن يقتنص الفرصة ولا يبددها لن يسمح لها أن تكون لغيره..

وجاءه يقين أنه يعشق من جديد وأن الشبه ليس إلا في القدرة على تحريك القلب وعودته للخفقان مرة أخرى بعد أن طواه النسيان.

في حقيقة الأمر كان هناك اندفاع يعقبه تردد، ومهما حاول أن ينسى واقعه.. كان يقبل عليها ويحجم، حتى ذابت الفوارق هناك عند المعرض الدائم للوحات في احد المواقع الالكترونية، صاحبها إليه.. فسر لها لوحات "جوجان" أرشدها إلى عبقرية النحت عند "مختار" وحينما شمل المكان صوت الموسيقى الكلاسيكية عبر السماعات التي على أذنيه.. تلاشى.. واعترف لها بمشاعره.. أخبرته بأن الأمر في النهاية محتوم بالفراق.. موءود قبل أن يولد.

كانت في حيرة من أمرها.. لم يعد الأمر مجرد أحاديث عبر الآلة.. كانت تشعر أن الأمر يحدث دون إرادتها.

أخبرها بأن الخوف من الغد.. يبدد اللحظة ويميت الأمل.

بعد ذلك صارا يتواعدان على اللقاء من بعد الخامسة حتى الثامنة.. كل يوم يظهر على الشاشة أنه متاح يتم الحديث بينهما.. بدا أنهما يتخطيان عوائق الانفصال ويحلمان ببقاء الأمر على ما هو عليه.

لا يعرف هو إلا اللحظة.. ولا تعرف هي إلا الخوف من الغد.

تردد أن يتصارح معها فيما يضمره من أسرار.. خشي النهاية.. شمله عشق لا نهائي.. باحت له أن الخوف من الغد يمنعها من التعمق..

أدرك أنه بين العشق والعمق بحور لا تنتهي إلى ساحل وبين العشق والجنون أوهام لا تتخطى حواجز الفشل.

في لحظة تواصل حقيقية وعدم اكتفاء بالرسائل المتبادلة اتفقا على اللقاء.. لقاء حقيقي يجمعهما على أرض الواقع.. بعيداً عن تلك الشاشة الزرقاء.

كيف يكون ؟ وأين ؟ ماذا ترتدي ؟ وكيف يتعارفا رغم تبادل الصور إلا أن اللقاء الحقيقي شيء مختلف. هل تتباعد بينهما المسافات ؟

استغرق الأمر وقتهما.. تفاصيل كثيرة تم تسويتها في نهاية الأمر تم الاتفاق.. وحينما أخذته نشوة قرب اللقاء وأخذته بعيداً عن الواقع..

سمع صوت الباب يفتح ببطء في غرفته، تدافع إليه الصغار.. أربكته المفاجأة.. دون أن يدري كتب الرسالة الأخيرة "سوف أنهي الآن لأن زوجتي أتت" دون وعي منه ضغط زر الإرسال.. ظهر له المربع الصغير " تم إرسال الرسالة ".

كادت أن تميد به الأرض.. انتهى كل شيء.. ليس في المستقبل بل الآن.. أدرك أنه لم يكن يتحكم في الأمر.. بل هذه الآلة.. هي التي استحوذت عليه.. حاول مراراً أن يلغي الأمر.. أن يستعيد الرسالة.

أن يتحدث إليها مجدداً.. انطفأ لون الجهاز.. ظهر رمادياً كئيباً.. كاسفاً.. ترك كرسيه وغادر المكان دون التفات إلى الصغار أو ما قالته زوجته..

بدا أنه عائد للتو من مكان بعيد.. وكأن يداً مجهولة أخذته نحو غيبته من الوعي ثم أعادته فجأة.. إلى مكانه القديم.

كأنما استيقظ وغادره الحلم دون قدرة على استعادته.. شعر بشيء كالسهم يمرق بضلوعه.. يمزق فيه ما حلا له التمزيق.. لم يستطع أن يصدر آهة ألم خشي السؤال عن حاله.

أو تفلت من عينيه عبرة.. لم يعد هو.. كان شخصاً غريباً يتحرك.. يجلس على كرسيه من الساعة الخامسة حتى الثامنة محدقاً في الشاشة الزرقاء على أمل أن يعود الوجه الباسم بلونه الأصفر ويكون متاحاً له أن يتحدث معها مرة أخرى.

ابتعد عن كل شيء رغم يقينه أنه لامحالة مهزوم وأنه لا يستطيع استعادة ما مضى.. أو يستعيد اللحظة فلقد ذهبت واختفت كما ظهرت في حياته فجأة.. اختفت الآن.

ولم تترك له سوى لمعة الضوء القوية.. والتي تلوح دائماً عند الأفق.. وحينما يدفعنا الهوى رغماً عنا.. ونجتاز الصعاب للوصول إليها.. عند لحظة الإمساك بها.. والظن أن الأمل قد لاح لنا لتحقيق الكينونة.. في تلك اللحظة تبدو لنا الحقيقة سافرة وأن تلك اللمعة ما هي إلا ثلوج دائمة عند الأفق.. ولا شي بعدها ولا شيء يعيش عندها.

تتجمد الأنفاس والمشاعر ويصير الإنسان إلى مصيره المحتوم وإلى أمله الموءود دون عودة.

وأتاه السؤال الحائر وبقسوة.. هل يمكث عشرين عاماً أخرى حتى يخفق القلب من جديد ربما ؟!.

الموت جوعـــا

لم يعد للوجود معنى محدد.. حاصرته الشكوك والظنون في كل شيء.. ضاق ذرعاً بما يحدث عزم على الهروب من هذه المدينة وترك كل ذلك وراءه.

وفي اللحظة التي استعد فيها للرحيل انتابته مشاعر عميقة لا يدري كنهها جعلته يلتصق بكل ما حوله وجعلت من فكرة الرحيل أمراً مستبعداً.

أن الأيام التي قضاها في هذه المدينة قد أتاحت له ما لا يمكن أن يتاح له في أي مكان آخر.. ولو في نصف قرن..

إنها خبرة حقيقية في مدينة الموت والأشباح.

كان عمله كمصور محترف في إحدى المجلات هو ما جعله يسافر إلى تلك المدينة ويلتقي بتلك الباحثة الفاتنة التي كانت بحاجة إلى خبرته لإتمام أبحاثها.

ودفعه حضورها الأنثوي وجاذبيتها إلى العمل معها.

وتصور أن الرحلة الشاقة إلى تلك المدينة التي يموت أهلها جوعاً قد غدت الآن رحلة ممتعة.

في بادئ الأمر لم يكن شغوفا بما يحدث ولم يعتد ما يرى ولكنه أقبل على عمله لأنه أصبح أمراً لا مفر منه، بقدر ما هو مؤقت أيضا. ولم يلح له.. أبدا.. كبداية لتغيير حقيقي في حياته

بدأت رحلتهما وفي داخل كل منهما هدف يختلف عن الآخر هو في نفسه خطط كثيرة للتقرب منها وهي منصرفة تماماً لأبحاثها، ولجديتها الشديدة لم تلتفت إليه كرجل، بل رأته إنساناً يساعدها في عملها، كانت أبحاثها تدور حول الآدمي... وسلوكياته أثناء الأزمات.

ولما حدثت تلك المأساة وجدتها فرصة لتحقيق دراسة ميدانية - على نطاق واسع - تؤكد فيها فرضيتها "أنه في لحظة الأزمة يولد في داخل كل انسان بطل حقيقي يتعامل مع الموقف بطريقة تختلف كلية عن سيرته فيما قبل".

كان يشعر بوجود فجوة بينهما، وكان يسعى جاهداً على تضييقها والتقرب منها.

واتخذ بعض السلوكيات التي تفيد ذلك، فكان يساعد في عمليات الإغاثة، ويسافر عدة أميال من أجل التقاط صور لمجلته، أو توصيل بعض المواد الغذائية إلى من يهيمون على وجوههم هرباً من رصاصات القبائل المتناحرة على رئاسة مدينة الموت، أو أن يبحث للهاربين عن مأوى آمن.

بمضي الوقت.. بدأ يشعر بنفسه تتغير واستحوذ عليه نوع من التوتر والقلق.

وبدأ يتسرب إلى ذاته.. من خلال الكاميرا.. هدف كبير، اكبر من أن يتحمله.

إن تلك المأساة جعلته يرى الأشياء واضحة.

ولأول مرة هزته اللقطات التي كان ينجح في التقاطها لإبراز هذه المأساة.

كانت رؤيتها تعذبه وتشعره بالألم.. كسوط تهوي به الأقدار ومظالم الإنسان على عينيه، فتنير له الطريق، ولكن الألم يحرق عينيه.

إن رؤية إنسان يموت فجأة أو في حادث، تبدو حلماً سعيداً مقارنة بذلك الشبح المخيف الذي يراه يمتص ببطء وشراهة شديدين كل معنى للحياة من وجوه آلاف الأطفال والنساء والشيوخ ويجعلهم كصورة سلبية للإنسان.

إن ما جاء في وصف المجاعات التي اجتاحت أمماً سابقة جعلتها تأكل الجيف.

وصار من مات يلقى في العراء عجزاً عن مواراته.

وفنيت الدواب، وأكلت جميع الأشجار حتى خشبها.

وانتشر الجراد وتساقط حتى ملأ طرقات المدينة.

كل ذلك يبدو شيئا تافها بجوار ما يحدث..

هياكل عظمية تسعى على الأرض.

أطفال أصبحوا شيوخاً من الهزال والجوع.

أمهات لا يجدن في صدورهن ما يطعمن به الصغار، فقد جفت الضروع، وتشققت جلودهن من الجفاف.

لقد أدرك لتوه أن كل ما مضى من حياته كان حياة بغير شعور.

أما الآن فإنه استيقظ على ذلك الكابوس المخيف.

ولكن ما أبعد ما يعاني عن الحقيقة.

إنه يتفلسف في وقت يموت فيه الناس جوعاً.

كانت معاناته النفسية رهيبة.

هو الذي كان يلوح له كل شيء خارج الكاميرا لا قيمة له.

أما الآن فقد زاد نضجاً واستوعب ما تعنيه الإنسانية.

لابد من مشاركة هؤلاء مصيرهم، حتى يدرك ما يعانونه.

بدا له الجوع خير سبيل إلى ذلك.

وحين أدرك أن حياته قد تكون الثمن، ملأه ذلك بسرور داخلي، كومضة نور الكاميرا.. ليس مبعثه أنه على استعداد للتضحية بحياته فحسب، بل لأنه استطاع أن يصرف نفسه عن التفكير فيمن كانت السبب في رحلته.

على الرغم من كونها تبادله الآن الإعجاب على ما قام به من

صور للبطولة، رأته وهو يحققها بمنتهى البساطة.

وكانت تدرك أنه على جانب كبير من الإنسانية دون أن يدري.

وكان وجوده تأكيداً لفرضيتها الأولي. .

وقد تعلمت منه الإحساس بالآخرين دون إخضاعهم لتجارب أو أحاسيس معاملية.. كان الحياة بكل مافيها من تناقضات.. لولاها.. ماكانت تحتمل.

وكان هو يمضي فيما اراد.

لم يتردد ولاح له في نهاية الطريق فضاء لانهائي من قوة الإرادة والسيطرة على النفس والإحساس بالآخرين.

أدرك أن التخلي عن كل شيء هو البداية الحقيقية للحرية.

أبعد الكاميرا عن عينيه.

وامتنع عن الطعام واكتفى بتقديمه لهؤلاء الجياع.. لا يذكر كم من الساعات أو الأيام قضاها وهو على هذه الحال.

إلا أنه بدأ يشعر بأن رأسه تكاد تنفجر وصداع من حديد يستبد به، ويكاد يحطمه.

شعر بأن الموت يدنو منه.

وخلايا مخه تتجمد.

وأن الحياة تمتص منه ببطء وشراهة شديدين.

راح في غيبوبة طويلة.

وحين انتبه ورآها أمامه ممسكة بكوب من الماء، تحاول أن تعيد إليه بعض الحياة.

كانت مفاجأة له.. أنه لم يمت.. وأنها بجواره أشعره ذلك بالسعادة.

ووجد لذة الحياة في جفاف حلقه.

وبحث عن الفضاء الذي سعى إليه لم يجد شيئاً.

حاصرته الشكوك والظنون في كل شيء، ولم يعد للوجود إلا معنى محدداً، أدركه حين اشتد عليه الجوع، فقام من فوره يبحث عن كسرة خبز كي لا يموت جوعاً..

كما يقولون

كان الموقف عسيراً على الحرس، فممرات المحكمة مزدحمة، والقاعات غاصة بالناس وهو رغم العُصابة التي على عينيه والسلاسل التي في قدميه والمتصلة بالقيود في يديه يسير بثبات، قطع مشهده تسلسل الأحداث، بث الدهشة في العيون والرهبة في القلوب.. البعض غير مساره لمتابعته، والبعض الآخر تجنب النظر تفاديا للعواقب. رغم الزحام شخصت إليه الأبصار.. رابط الجأش رأوه بين حراسه الأربعة، بنادقهم الآلية مشرعة إلى الأمام دون هدف محدد، قوي البنيان، لم يحطمه سجن أو يغل روحه قيد.

توقف الموكب في وسط القاعة المزدحمة.. رفعت عن عينيه العُصابة السميكة، لم يجفل من مفاجأة النور.. عكست نظرة الاطمئنان في عينيه نورا يتدفق من قسمات وجهه.. تطلع بعين حانية للوجوه الناظرة إليه، يبحث عن وجه يألفه أو روح يأنس إليها.. تبدت الغربة في ملامحه.

أوقفه الحرس أمام القفص الحديدي المزدحم بالمحجوزين.. أعياهم البحث عن مكان له.. زادهم الحرص رهقاً، فهو نسيج وحده.. أفهمهم الضابط أنه " إرهابي" والإرهابي كما يقولون : "خطير جداً.. تهمته الحرق والقتل".. رغم كثرة ترديد اللقب ومعرفتهم بجريمته أبت قلوبهم

التصديق، ولكنها مهمة رسمية ويجب تنفيذها.. تجسد الخوف المبهم في عيونهم في صورة ضابط السجن وهو يأمرهم بتشديد الحراسة فلقد كلف بصفة رسمية بحراسته.. تم التنبيه عليه من رؤسائه لخطورة السجين واقتراب محاكمته.

حين انفرد الضابط بنفسه حاصرته أفكار كثيرة.. تذكر تنقلاته الفجائية.. أتته ذكرى بعيدة.. وهو يدون في تقرير أمني رأيه الصريح في ظاهرة دينية، كان يكره الخرافات وحسه الديني يأبى تصديق ظهور الأولياء والقديسين على قمم الجبال.. اكتشف حين تم نقله إلى أقاصي الصعيد أنه وقع في المحظور، وتجاوز حدود المسموح.. هناك كان الفراغ والتكوين وراء بحثه عن اليقين.. اجتمع لديه شباب القرية.. أدرك بمرور الوقت وبما سمعه من شباب القرية أن الوصول للحقيقة ممهد.. كان عزمه محدداً وغايته صريحة واضحة.. تمتع بإحساس عميق بالصفاء لم يعرفه من قبل.

جذب إليه شباب القرية وشيوخها.. استطاع أن يروض شدتهم.. ساروا معه في طريق البحث عن الحقيقة.. حينما اقترب من الحقيقة أكثر أتاه أمر النقل إلى محافظة جديدة، حتى استقر أخيرا في موقعه الجديد، كضابط حراسة في مصلحة السجون، حاصرته ظلال الجرائم، أرهقه اختلاف الطباع، نوعية التعامل ألزمته الشدة.. تمحور حول ذاته، تباعد عن كتلة البشر، صاروا أرقاماً هو مسئول عنها.

أصبح روتينياً شديد القسوة.. شديد الحراسة.. يعمل بحزم اتخذ سبيله في الصعود.

أتته مهمة حراسة السجين، أرهقه في البداية، منع عنه الكتب الدينية حتى المصحف أخذه منه رتب له من الماء ما يكفي فقط للشرب.

وجده لا يتذمر، لا يضرب عن الطعام، كما اعتاد ممن مثله، لاحظ تيممه للصلاة واستغراقه فيها، راقب نظراته الهادئة، واستمع له وهو يرتل القرآن.

تذكر الضابط سيرته الأولى، شباب القرية، شوق الوصول للحقيقة، رغم تربص السلطة بهم، لاحظ التضاد بينهم ومن حوله الآن، إيغال الخوف في النفوس، افتقاد الطمأنينة والأمن.. اقضه انتكاسته الأولى، رجوعه عن السعي، تعلله بفساد من حوله، بنقاء سريرته رغم كل شيء !!!.

عندما اقترب من السجين، عاوده الشوق لمعرفة الطريق، تجسد له زمن الأولين، ذات مرة طلب منه برهان على براءته، أكد له صحة ما اتهم به، انزعج بشدة، أمره أن يكف عن التخفي وراء مسوح الدين وآيات القرآن.. لم ينطق السجين ونظر إليه وشمله بهدوء.. هرب الضابط من عينيه.. أعاد لنفسه هيبتها.. إنه في مهمة رسمية ويجب تنفيذها.

فيما بعد اتصلت بينهما الأسباب، جمعتهما حوارات شتى، نسجت خيوط غير مرئية بينهما متصلة بماضيهما وحاضرهما وما تأتي به الأيام.. صارا كأنهما جسدان لروح واحدة.

في محاولة الضابط لمداواة أخطائه المتصلة منذ تسلمه المهمة، وما فعله معه في البدء، أمده بمصحف، احضر له كتب دينية ممنوعة تداولها، مكنه من الوضوء لكل صلاة، في أوقات متأخرة من نوبات حراسته جمعتهما الصلاة.. كان الموقف يتسرب من الضابط ولكنه لا يملك منعه.

شعر بروحه تعود إليه.. كان النسيج قد أكمل ثوب العلاقة بينهما ووشاها بالحذر حذر السجين من تقلب سجانه وحذر السجان من التعاطف الخطير مع سجينه.

في إحدى الأمسيات سأله عن نشأته، عن جذور البدء، عن دوافع القتل والحرق !! في تمتمة خافتة أجابه السجين : " في مدينتي هذه، فأنا لم آت من أقاصي الصعيد أو أطراف القرى، نشأت كنبت بلا جذور، كدت ارتكب الخطيئة، حتى أدركني شيخي ومن علمني حقيقة ديني " .

قاطعه الضابط : " من هو ؟ "

التزم السجين الصمت.. انقطع ما كان قد بدأ.. رغم الإصرار بدا الحذر عائقاً.. والوصول ممتنع.

كانت العبارات تتقوقع داخل ذاتها.. فتخرج مبهمة المعنى.. مضللة المغزى.. في وحدته كان السجين معذبا من انعدام القدرة على البوح.. أرهقه السر.. رأى فيه ما ود معه لو أفضى له بكل ما يعرف.. حين علمه شيخه أن يعيش في هذه الدنيا وقلبه وروحه معلقة بالعالم الآخر، عالم الروح والحقيقة، يتنزه ويتسامى عن عواطف البشرية المجردة، ويتحول إلى عاطفة كلها خير، قد يقتل أو يحرق لا لغاية دنيوية يرجوها.. بل لما هو أعلى وأجل.. تمنى لو شعر سجانه بالنبض الساري في تلك الأجساد الفانية حين تدرك الحقيقة فتحيلها إلى كتلة من اليقين، وعزم لا يلين، لكن الحواجز القائمة بينهما، والخشية من عواقب البوح، تفرق بينهما ولا تجمع.

في الصباح، صاح عليه أحد الحراس أن يستعد، فاليوم موعد الجلسة الأخيرة من محاكمته.. ألقى نظرة على سجانه، عند خروجه من الزنزانة في رحلته المعتادة أمسك الضابط يده في عطف وشد عليها بعزم، ثم أسلمه إلى حراسة مشددة.

حين بلغ المحكمة خرج من اللوري الضخم معصوب العينين صادفه الهواء فأراحه هذا بعض الشيء، سار في ذات الممرات المزدحمة، حين رفعت عن عينيه العُصابة السميكة كان غارقاً في تفكيره.. جال بخاطره أن اليوم – بعد انتهاء محاكمته – يستطيع التواصل مع الضابط دون خوف.

بدأ الدفاع مرافعته.. وصلت إليه العبارات "مرت البلاد بمرحلة

عصيبة".. استمع في دهشة أي خطة يتبعها المدافع عنه.. أكمل المحامي في لهجة أسى : "وكل مخلص يسعى لخلاصها يتهم بالتطرف".. "سدت كل منافذ التغيير... اعتقل الآلاف من كل الطوائف.. اغتيل الفكر في العقول.. أن تدافع عن خطر محدق بك فأنت في حالة دفاع عن النفس.. فكيف لا تكون كذلك وأنت تدافع عن الأمة بأسرها.."

استمعت المحكمة في صمت، يعرف هو أنه مدان قبل المحاكمة.. فهم يقولون عنه "إرهابي" وهذا يكفي لإدانته.. سواء ارتكب ما اتهم به أم لم يفعل.. ود لو ادخر المحامي جهده إلى ما ينفع.. حين رفعت الجلسة للمداولة، كان يشغله عودته إليه أنار قلبه حين تذكره، التضاد بين دنيا الناس ودنياه، بين قضاته وسجانه.. ألهمته الفكرة – فيما قبل – ناراً مقدسة بها سعى.. أشعل النار فيما يخالفه، حرق وقتل ليهدي.

وحين تواصلت الأسباب بينهما ألهمته فكرة التضاد ذاتها نوراً أراد أن ينقله للآخرين يشرح ويوضح ليهدي.

حين انتهت المحاكمة وحدد تاريخ للحكم، أخذه الحرس، أعادوا العُصابة على عينيه.. كان متلهفاً للوصول إلى سجنه، حريصاً على أن يكون في زنزانته.. بات لقاء الضابط أمنية عزيزة عليه، فاليوم يستطيع أن يزيح عن نفسه القناع ويتبدى كحقيقة يسهل الوصول إليها.

دخل زنزانته دون أن يلقاه.. سأل أحد الحراس، لم يعره اهتماماً.. وجد ضابط آخر يتولى حراسته.. انتظر عودته.. قد يكون في إجازة أو مهمة أخرى وسرعان ما يعود.. حين أدرك غيابه.. حاول أن تتصل أسبابه بالضابط الجديد.. صدته برودة المشاعر وغلظة الملامح، أبعده خفوت اليقين وخمود الروح.. أدماه ضياع الفرصة وفوات الوقت خشي انقضاء الأجل قبل البوح.

توالت الأيام قاسية، حاصره السجن – لأول مرة – في نطاق ضيق.. شعر بالسجان وهو يراقبه ويحصي عليه أنفاسه.. لاحت له قيوده عاصية وروحه مغلولة.

تذمر واضرب عن الطعام.. تجسدت القضبان في الوجوه والجدران.. فيما مضى لم يستشعر القيد.. الآن يحاصره كل شيء.. تملكته رغبة جارفة في الهروب.. هاجت فيه روح متمردة لا تهدأ.. أدرك أن وجود الضابط ومحاوراته معه كانت سبيله إلى الطريق.. وأنه اليوم وحده قد يضل الطريق.

محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.. عذبته السنون وهي تمر بطيئة تسحق روحه وتهد كيانه.. لم يقابل بعده من أدرك كنهه وعرف سره.. في وحدته بدت له الحقيقة مجردة.. ولأول مرة.. أدرك.. أنه سجين وأنه كما يقولون " إرهابي ".

فى حضن السماء

كان الطائر وحيداً في الأعالي يبدو بلونه الأبيض كشعاع قادم من قلب السماء، يحلق دوماً ولا يهبط يعاود الطيران إلى العلو الأشهق، يبتعد عن الأنظار ويختفي في حضن السماء.

في مساره البعيد تنبسط الأشياء من تحته ؛ يرى البشر أشباه النمل تسعى، أدق من ديدان الأرض تتخذ لنفسها مأوى.

في وحدته العالية ترنو عيناه إلى من ينتظر، يكتم سره ولا يبوح، يردد اسمه في نغمات لا تفصح.

في فترة الانتظار يكتفي بالطيران المتلاحق حتى يأتيه الأمر فيدنو ممن اختاره القدر للقائه.

وحدها لمحته على البعد، رأته في علوه الشاهق، أدركت أن في الأمر ارتباط وصلة، تحقق أحلامها مرتبط به.

حاولت أن تنقل للآخرين أوصافه. ضاقت بها السبل. الكل لاهٍ عن هذا الطائر المحلق دوماً.

لم تعدم تمتمة خفيفة من أمها بالدعاء.

لكن الباب كان موصداً للوصول إلى الحقيقة الغائبة المحلقة دوماً في عنان السماء.

شعرت به يحلق بعيداً بعيداً، ينتظر الأمر ليهبط في كفيها ويجمعهما مكان واحد بعد طول غياب وانتظار.

رغم بعد المسافة وزحام البشر، وتسابق الأقدام وصراع الأيدي كانت تشعر رغم كل شيء وفي قرارة نفسها أن لها وحدها كان يطير.

جعلت من أعماقها مستقراً له. دون أن تراه - في مساحة كافية لرؤيته بوضوح حددت ملامحه اتساع جناحيه يشملها، ترتفع معه إلى غايات أبعد وأعمق من حياة الأرض والبشر.

حدة بصره تحيطها علماً بكل ما خفى، تطلعها على أدق الأسرار وأجل التجليات، نداء اسمها همساً تسمعه منه لحناً لا يتغير.

شاقها توحد الاتجاه رغم اختلاف المسارات وغياب العلامات الدالة، والاتجاهات المحددة.

أحياناً.. كانت تشفق على نفسها من الانتظار، حاولت أن تخفي عن المقربين إليها تطلعها الدائم إلى السماء.

هربت منهم إلى شاطئ البحر.

اتخذت لنفسها زاوية لا تتغير، في اتجاه السماء، على صخرة

بارزة، قريبة من الماء، جعلتها مرفأ لها من هواجس الأقرباء وخوف الأم.

أقبلت على الروايات في نهم ملحوظ، نسجت مَنها خيوطاً غير مرئية تداري بها نظرتها المختلسة إلى المحلق دوماً في السماء.

أدرك من حولها حبها للبحر وسياحة عينيها في السماء مرتقبة الطائر في علوه الشاهق فآلف الكل منظرها المنسجم مع المكان ؛ جالسة على كرسيها الممتد تحت مظلة تتأمل الفضاء اللانهائي، وخصلات شعرها الهاربة في تمرد واضح على إيشاربها المعقود، تداعبها يد الهواء الرقيقة، محدثة وشوشة خفية، راسمة على وجهها ابتسامة هادئة مزيج من الأنوثة والرقة، موشاة بالنضج والهدوء.

وبداخلها قلق غير مرئي هادر كموج البحر، صاخب كصوت الريح ينتظر أن يقر الطائر المحلق دوماً في كفيها.

مر زمان وهي تنتظر، لم تشعر بمروره، كانت اللحظة الفاصلة بين الانتظار ولقاء الطائر تمر عليها تاركة علامات الزمن على وجهها، دون أن تمس روحها المحلقة مع طائرها في عنان السماء.

في الفترة المنقضية بين الانتظار واللقاء تعلمت فن الألوان، اتخذت من الفرشاة حيلة إيجابية تغنيها عن ملل الجلوس وسكون القراءة.

أبدلت أبطال الورق في الروايات بلوحات من إبداعها، وجدت ذاتها.. حولت كل أحلامها إلى لوحات تتسم بالغموض في التفاصيل ثم تنتهي إلى شفافية وأمل لا ينتهي.

جعلت من فرقة عازفي الكمان وجوهاً غير مرئية - خافية الملامح - سود الملابس - ثم وقفت أمامهم راقصة الباليه في زيها الأبيض - تحاكي طائرها الأسطوري - تقف على أصابعها في رشاقة وحرية منطلقة من كل قيد سوى أوتار عازفي الكمان.

طاقات من النور مجهولة المصدر تأتيك من اللوحة.

فيما بعد لمحت شاباً يقترب بقاربه الصغير لا يفارقه ويدنو بمحاذاة الصخرة، رأته يتطلع للوحاتها مشدوهاً مأخوذاً بصاحبتها.

وهي لاهية عنه ترنو ببصرها إلى السماء الخالية من أي شيء سوى ضوء يأتي من أعماق السماء مجهول المصدر، يتخذ شكل طائر جميل، يحلق دوماً ولا يهبط، قد أسكنته - حين عجزت عن لقائه - كل لوحاتها، فتدفق الأمل من ثناياها، كضحكة طفل وحيد أبويه.

في غفلة من ترقبها الدائم للسماء - اقترب منها - طائر نورس أبيض جذبه هدوءها ورقتها المتناهية، ظل يحاكي أمامها منظر طائرها الأسطوري.

لاح لها - دائما - على مدى بصرها، رسا على مقربة من الشاطئ - يلتقط الأسماك الطافية على وجه الماء.

ويحدث أصواتاً ليس بها ذلك اللحن الذي يردده طائرها في علوه الأشهق، لكنه أتقن ترديد أسمها - ظنت أنه هو، ولها وحدها يغني.

جذبها تشابه اللون واختلط عليها الأمر.

في دوامة الرغبة في الفرار من مصير سيئ إن طال الانتظار، ظنته طائرها، مدت بصرها إلى نهاية الأفق البعيد، لم تلمح طائرها في علوه الشاهق، أوحى غيابه عن ناظريها أنه هو.

لاحت لها نهاية الانتظار في القرب من هذا النورس. كان هادئاً بالقرب منها. يتودد إليها بطيرانه المنخفض وبضربات جناحيه الراقصة من حولها، أسعدها منظره وإن حيرها تذبذبه في المكان حولها.

أغناها- طول الانتظار- عن التفاصيل- مال قلبها نحوه..

حين مدت يدها ببعض "الحب" ألقى النورس بنفسه في يدها.

في حنو بالغ، ورقة شديدة، ضمت عليه الأنامل.

فرحت بأيامها معه، اشتاقت إلى مكان هادئ يجمعهما للأبد، لمسته برقة، تمنت لو يختبئان عن كل البشر، يبتعدان عن صخب الأمواج، وغدر البحر.

هناك في الأفق البعيد الممتد بين السماء والأرض، لاح لها طائرها في علوه الشاهق، مختبئاً بين السماء والأرض، أزاحت هذا الخاطر عن نفسها.

ومضت مع النورس يخالجها بعض الشك في اختلاف الروح والتكوين؛ فمنقار النورس أسود بعض الشيء.

وحين تركها - ليطير فوق البحر ويلتقط الأسماك الطافية - شعرت بخوف شديد - لكنه سرعان ما عاد قبل غروب الشمس ونام في كفيها.

ولكن هذا الوجيب في القلب ما زال هناك، قابعاً في الأعماق كصوت بندول لساعة قديمة مزعجة - يختفي مع الزحام - ويعود إذا انفض الزحام وخلا المكان.

يثير صوته الرتيب ذكريات الانتظار والسنوات المنقضية دون أمل في لقاء الطائر المحلق دوماً في السماء.

لاحظت مرور السفن أمامها حاملة أشياء وبشر، إلى جهات شتى في عوالم مختلفة، عائدة بغيرهما.. تمنت معرفة كيف يلتقون ويفترقون ؟ تتبدل الفصول والأحوال وهي ثابتة.

في انتظارها الطويل تمنت أن تحيا حياة العاشقين – أن تبدل نظرتها المنتظرة إلى نظرة محبة. كان كيانها كله حب وعطاء.

كأنما انتظرت لحظة لقائها بالنورس ليتفجر ما بداخلها من رغبة

في الحياة التي تمنتها، لكن صوت البندول – يقض مضجعها – يدوي بصوته الرتيب في ليلها الخالي من الونيس – مخلفاً ورائه حلقات من التساؤل تتسع وتتسع حتى تبلغ الشاطئ الآخر.

وجدت نفسها مع الأيام تذبل.. تضيع معالمها.. تكوين ذاتها التي حرصت عليه.. يضيع مع هذا النورس.

لم تستطع أن تعود إلى الأرض ولم تصعد إلى علو شاهق.

ظلت بين بر وبحر ضائعة.. بين مد وجزر هائمة.. ليس لها مكاناً ترسو عليه.

شملها دوار من تذبذب النورس حولها. أزعجتها ضربات جناحيه المتلاحقة وهو في نفس المكان أيقنت أن حياتها ولوحاتها في مهب رياح عاتية أتاها النذير حين تمزقت صفحات دونت فيها خواطرها، ولوحات رسمت فيها الطائر الأبيض أعمل فيها النورس منقاره الأسود.

سعت لتجميع صفحاتها من جديد استرجعت خواطرها.

بدا البون شاسعاً بين ما كانت عليه أيام الانتظار وما هي عليه مع هذا النورس.

أنهل دمعها على وجه صوفي أدماه البعد عن الله فعرف أن البكاء هو أول الطريق إليه.

لم يسكن دمعها رغم امتلاك أمرها - فيما بعد - وإنهاء الصلة بنورس غبي لا يدرك من الأشياء إلا قشورها ولا يلتقط من الأسماك إلا أخفها وزناً.

وأتاه الحظ حين عرفها، وعجزت حقيقته عن الاحتفاظ بها.

قطعت الصلة وألقت بما مضى وراءها ... شرعت في البدء من جديد.

اشتاقت إلى السماء الصافية، حانت منها التفاته إلى الشاب في قاربه..أسمته.. عاشق البحر.

رأته دوماً بجوارها لكنها اكتفت بالنظر إليه. أما هو فكان دائماً حولها، يرنو ببصره إلى الشاطئ الذي هجره منذ سنين، شده إليها ارتباطها بالبحر. جذبه إلى الشاطئ وجودها في هذا المكان.

حين حاول التحدث إليها كانت لاهية عنه شغلها النورس الطائر واللوحات.

اتخذ مكانها مرفأ له. ألقى شبكته بالقرب منها، تعمد دخول مجال رؤياها.

حين أنهت لوحة الأوتار رأته مشدوهاً إليها، أشار إليها أن ترسمه فهو جزء من المكان.

حين أبت.. وخزه الاستجداء.. لكن شعوره بها كان أقوى من التوقف عند التفاصيل المؤدية إليها.. طغى عليه شعور بالاحتواء.

بعد تردد. وافقت على رسمه، شرعت في تحديد ملامحه على اللوحة، استعصى عليها معرفة سر هذه الابتسامة التي لا تفارقه كقناع يخفي وراءه حزناً دفيناً لا يقوى على البوح به يلوح في عينيه كلما التقت بعينيها. أدناها منه الشعاع المنبعث من عينيه تشابه عندها للحظة مع الشعاع القادم من السماء.

قاومت كل نزوة تأتي بها الحياة العابثة ؛ فلديها النورس ولا يمكن للطائر أن يكون هو والنورس فذلك محال. كفاها ما عانته من النورس رغم تشابه اللون والقدرة على التحليق. كما لا يمكن أن يكون كل عابر هو طائرها المحلق.

حاولت إنهاء اللوحة بأسرع ما يكون هرباً من أي التزام حددت الوقت لإنهائها ما بين ذهاب النورس ووقت الغروب.

أدركت أن هذه اللوحة هي الصلة الوحيدة التي تربطها بكل ماضيها.

فيما بعد حين أنهت الصلة بالنورس وحانت منها التفاته إلى الشاب..

سألته عن سر بقائه الدائم في البحر..

سألها عن سر بقاءها الدائم على البر..

امتزجت نظرتهما بمعانٍ كثيفة، كل منهما أدرك سر الآخر.

حدثها عن الأخرى التي سعى إليها، ولم يتنازل عنها، رغم الوحوش الضارية التي عارضته، والأفاعي الساعية إليه، وحين مزقه الصراع.. رآها مع غيره تتودد إليه، أدرك أن البر غابة سوداء، ليس له فيها مكان، وانسحب إلى البحر متخذاً من قاربه عالمه الخاص، فر من كل شيء، من الأرض من البشر.

أفهمها أن السراب خدعة، وفي البحر لا يوجد سراب، أمان مطلق هذا البحر.

رغم اتخاذه العهد ألا ينظر إلى البر، إلا أن رؤيتها وهي جالسة على الشاطئ تنتقل من لوحة إلى أخرى، جعله يأنس إليها.. رآها وسط الظلام كنور قادم من أعماق الأرض، لا يدري مصدره لكنه يراه وبوضوح.

أوشك أن يسألها النزول إلى البحر، أن تشاركه قاربه وشراعه وهذا العالم الممتد، لكنه أمسك خشية الإفلات والانتهاء.

استمرار الحديث يكفيه، الرغبة في المزيد قد تكون نهاية كل شيء. وقد تكون هي الأخرى سراب.

حين قصت عليه قصة النورس، أدركت أنه كان قريباً يراقب، لم يستطع إنقاذها من هذا النورس، لأنه كان سعيداً بتحرك مشاعرها، بتعرفها على الكائن الأسطوري الملقب " بالحب ".

تبادلا الحديث كثيراً ... وعند نهاية كل يوم كان يفترقان هو إلى البحر وهي إلى البر.

ذات يوم وهو قادم من أعماق البحر ليجلس معها، حاصرتها مجموعة من الفتيات، كان منظرهن فتنة وهن بلباس البحر، حاول أن يبتعد قليلاً.. لاحظ أنها حانقة ورافضة لهذا الحصار. اقترب منها، لمح في عينيها بريق دمعة تخشى أن تنحدر فتفضحها مع هؤلاء. فهي تعرف ما وراء هذه النظرة المرسلة منهن إليها، تجمعن حولها في دائرة حجبتها عن عينيه.

أدار قاربه إلى الجهة الأخرى من الصخرة.. تمكن بصعوبة من رؤيتها.. وسماع الحديث الدائر على الصخرة.

قالت إحداهن: "لقد رأيت لوحة بديعة في معرض، ليتك ترسمينها". نظرت إليها صامتة. فأكملت فتاة غضه لم تزل دون العشرين - "صفي لنا هذه اللوحة لعلها تعجبها".. بدا في صوتها أن خيوط المؤامرة تكتمل.. في حماس شرعت تصف لوحة لامرأة عجوز تجلس القرفصاء في مدخل إحدى حارات مصر العتيقة بلباس أسود ووجه حزين مستندة على جدار قديم لمنزل متهدم، مرسلة نظرة إلى مفارق طرق - نظرة متوسلة - راجية أن يأتي أحد أو أن يعود الغائب - ثم أكملت بخبث شديد "ولقد أسماها الفنان في ورقة بيضاء أسفل اللوحة: (في انتظار ما لا يأتي) ".

وبعد صمت قليل، انفجرن في ضحك هستيري، وصل إليه في مكانه كصوت أسماك القرش وهي تنهش فريستها.. ولكن الغريب أن هذه الأصوات تصدر من أفواه ضاحكة.

لم يدر ماذا حدث لها بعد ذلك، شعر بأنها تتسرب منه، وغاب عنه الوعي بلحظة الاحتواء التي جمعتهما، بامتزاج نظرتهما، في اتحاد الرؤى رغم اختلاف المسارات، تشابهت لديها الأشياء.. ضاع كل ما قاله سدى.. رأى في نظرة عينيها حنو إلى السماء.. قبل أن يبدأ.. انتهى ما بينهما.

لم يجد بد من نهاية يصل إليها.. كانت لحظة الاحتواء تشده للبقاء، كانت طاقة دافعة إلى بقاء الحياة داخله مهما اشتدت قسوة الظروف وتباعدت المسافات.

كانت لحظة الاحتواء هي الرصيد وما تلاها كان السحب من ذلك الرصيد، لم تضف إليه بعد ذلك ما يجعله يستمر في توجهه إلى البر.

وصل إلى لحظة فارقة أيقن فيها بضرورة الرحيل.

بالبقاء وحيداً في بحر يأمن إليه.. لا يوجد به سراب يخدعه مرة أخرى.

حين رنت ببصرها إلى السماء الصافية لاح لها من أعماق السماء.. شعاعٌ أبيض.

شرع هو في ذات الاتجاه بالسعي نحو الأفق البعيد.. ظل يوجه شراعه إلى المدى اللانهائي.. كشعاع يمضي في اتجاه التقاء السماء بالأرض.. كضوء أبيض.. يبتعد عن الأنظار ويختفي في حضن السماء..

وظلت هي معلقة بشعاع قادم إليها وحدها: يشملها باتساع جناحيه، يحيطها بحدة بصره.. يردد اسمها في لحن مميز لا يتغير.. يحلق دوماً ولا يهبط.. حتى يأتيه الأمر فيدنو ممن اختاره القدر للقائه.. وفي انتظاره للأمر.. يعاود الطيران إلى علوه الأشهق، يبتعد عن الأنظار ويختفي في حضن السماء.

مصير طفل

خرج إلى الشارع.. تخطى الممرات المؤدية إلى صياع الوقت، وانصهار الزمن. وصل إلى صحبة قديمة، تنتمي لزمن مضى وولى.. يحتويهم المكان، مقهى منزوي يتبادلون فيه الأسى، يستمعون إلى مصطفى وهو يقول قصائده.. التي لا تجد مساحة في هذا الزمن يجمعهم هشام.. يتواصلون في محاولة للإفلات من الهامشية والتسطيح.

لفه الصمت.. ينتظرون رأيه في قصيدة مصطفى.. يتوه عنهم في لحظة فصام عنيد.. مستبد مسيطر.. يأخذه بعنف.. يشعره بالضياع والوحدة يقتله الانتظار.. يخرج المحمول من جيبه يضغط زر الإظهار.. رقم لفتاة غيرها.. يلغيه بعصبية من سجل الهاتف.

يعاوده الصمت.. يرتشف القهوة.. يستعيد مذاق القهوة الذي عرفه معها.

يقول مصطفى وقد طال انتظاره :

"إني كالطفل تحكمني الغرائز

افعل ما يجوز وما هو غير جائز "

يتذكر لقائهما – تحكي له عن حلمها – قبلها برفق في باطن يدها، استمتع بإطلالة وجهها بخصلات شعرها، الهاربة رغم احكام الايشارب، تحكي له عن أسرارها، يستمع إليها، أحاديث الماضي وعذاباته.. يتسلل عبر الحنين، يندفع رغم القيود فكل شيء مؤدي للاشيء، فلماذا الوقوف عند التفاصيل، كان يظن أن كلهن سواء.. حين اقترب منها.. احتوته.. شعر من لمسة يدها بالاكتفاء.. أنسته كل مغامراته..

قاطعه هشام وهو يحاور مصطفى : "لماذا كلمة الطفل" ؟

عاد إليهم يدافع عن الطفل، سر البراءة، لولاه لكنا رجالاً وكفى.

قال ذلك وهو يطارد عنه شبح ماضي، كان غايته فيه أن يستمع وكفى.. يعاوده الحنين إليها يسرح في وسع عينيها، في امتلاء شفتيها، لمسة من يديها، احضانها الهاربة، إلى ظلال مكان خلا من الأغيار، فلا شيء يفوق الصدفة حين كان يضمهما المكان، وتكون الفرصة مواتية، والأمر ميسور، كانت الدنيا لديه رغم كل شيء، كان يترقب نهاية القصة، لم تعد كغيرها، تنتهي ويبحث عن أخرى، الآن ومعها لأول مرة يشعر بالاكتفاء.

شعر بالضياع والوحدة، لم يقو على احتمال الهجر، رغم الصحبة.. دكه البعد عنها وطول النأي.. فاجأه الرنين.. ظهر الرقم المحبوب إليه، أين أنت ؟ سالها معاتباً.. غاضباً.. محملاً بأسى البعد والحنين.. لاحظ في نبرة صوتها اختلاف.. بكاء.. غضب لم

يستطع التمييز؟!.

أجهد أذنه، أرهف سمعه، بصوت خافت مرتعش أخبرته، اجتماع الأسرة.. تقرير المصير، حتمية الأمر.. سرى الخبر في جسده كالسم.. أخذ بأنفاسه، توقف عن التفكير صادف الأشياء متباعدة.. تولاه شعور بالفقد !!.

حين استعاد صوتها.. تساءل: "هل كانت سعيدة.. أم حزينة"؟!.

اختلط عليه الأمر، كيف يلملم شتات نفسه، كيف يعود من حيث بدأ؟ كيف يخلو العمر منها ؟ كيف يمضي في الزمان بعدها؟ لم يعد يعشق سواها.. فقد استطاعت تغييره.. هكذا رد على مصطفي حين أنشد :

"فهل تستطعين تغييري

أم تخضعين لأسلوبي وطريقة تفكيري

أتاه خاطر أن هناك في تلك اللحظة من يرقص قلبه فرحاً، من ينتظر بفارغ الصبر، يتحين الفرصة ليبثها غرامه.. راح يتأمل كيف يكون ؟ اغترب من أجل تحقيق أحلامه ؟ هل كان يفكر فيها قبل السفر ؟ هل بينهما صلة ؟ هل اعطته وعد، اراد أن يعرفه.. شاقه أن يخبره بما هو فيه، بعشقه لها، بانتظاره للحظة تخوفه من الغد، أن يأتي بالفراق المحتوم !!.

تطلع إلى عينيها، تنفسه أنفاسها، إصغائه إليها، لثم يديها، طوافه

من مفرق شعرها حتى قدميها، أراد أن يصور له أقصى أمانيه، أن يغمض عيونه ويهمس باسمها، كضرير يتلمس النجاة، يلامس شعرها، يرسم بيديه حدود حاجبيها.. يترفق عند العينين، يتمهل باتساع الهوى يمضي أيامه.. يداعب جفونها، يحيط أنفه بأناملها.. يهبط إلى شفتيها ما بين اتساع عينيها وامتلاء شفتيها تمنى لو ضاع العمر لديها.. يدور مع استدارة الوجه.. الأذنين، براحتيه يطوف ما بين الجيد والصدر يضيق عند الخصر، يلامس الفخذين يرتب على الردفين، يحتوي القدمين وإلى مفرق النهدين يعود تقبيلاً.. حتى نهاية الأمر.. حين فرغ من طوافه أتاه صوت مصطفى :

"يستيقظ ضميري أحياناً فألعنُ قُبحي

ويموت أحياناً فاتلذذ بقفز الحواجز "

حين نظر إلى مصطفى وجده مستغرقاً في الكلمات، عاودته صورته وهو يبكي مع محبوبته على كلمات قصيدته.. فارقه المعنى.. فهو لم يعشق سواها كيف استطعت يا مصطفى أن تمضي في الحياة بعدها ؟

"إني عن التغيير عاجز"

رغم تقبيل باطن يدها لم يمتلكها، صارت تنتمي إلى آخر، هام فيها حباً ولم يشفع له ذلك، انطقع عن كل أحد سواها، ولم تعد له!!

يطوقها الآن طوق ذهبي سخيف، حاول أن يفلت من الحصار أن

يعود إلى مغامراته لم يستطع.. ساوره الشك في ذاته، أهو نفس الرجل.. لم يعد قادراً على استعادة هويته، فقد نفذت إلى صميمه وأحدثت به التغيير.. لم يعد العشق عنده كثيراً نسى قراره من الارتباط بواحدة، وإفلاته من الحصار بالتعدد غادر مكانه.. ترك صحبته دون كلمة، فقد تلقى منها رسالة على المحمول تؤكد حبها.. تشتكي العجز وقلة الحيلة ؟!

لم يعد يعرف طريقاً مرسوماً، أو خطة مدبرة ؟ هل يستمر ويتظاهر بأن كل شيء مقدر، أو أن شيئاً لم يحدث.. أيعاتب الدهر !! أم يعاتب نفسه على تماديه في عشق محتوم الفراق كادت رأسه تنفجر حاصره العجز .. في سيره أغضبه وجود الناس.. ضاق بالزحام أراد أن يمحو كل الناس ولا يبقى سواها !! فكيف يُباع الإنسان لمن يدفع أكثر في زمن انتهت فيه النخاسة، لماذا حين التقى بها لم يكن يملك مصيره !! كيف تعطي جسدها لآخر والقلب معه؟ كيف يكون قربها من آخر ؟

ارسل إليها بفكرته " لنحطم جدار الخوف " لنشد الرحال إلى بلاد لا نعرفها.. نهزأ من كل التقاليد والخرافات.. نبدأ حياتنا بعيداً عن دنيا الناس، في صحراء مجهولة، عند صخرة صماء، أو قرب القمر هناك في السماء.. أو هناك في السفح الممتد بلا نهاية.. لا فرق.. لابد أن نكون معاً الأرض لنا والحب بيننا.. ضرب لها موعداً أن تلقاه عند المكان المهجور الذي اكتشفته معه.. اسرع الخطى إلى

هناك يملؤه حماس شديد، تصور له أمانيه اللقاء، هو وهي.. دون غيرهما.. مهما كان الأمر.. طال انتظاره..

انتظر الرد، تأكد من وصول الرسالة.. طال انتظاره، لم يجاوبه غير الصمت.. أخذه السير إلى المكان المهجور، هناك قرب النهر، عند نهاية السور الممتد عند كوبري الجلاء خلف الأوبرا دخل وحده.. جلس بعيداً في ذات الطاولة التي كانا يجلسان عليهما، أتاه صاحب المكان رجل مسن، حياهُ كصحبة قديمة، في عينيه تساؤل صامت منها ؟ لم يستطع أن يسأل.. فخبرته تحذره من نكئ الجراح، وإثارة الذكريات.. لمح في عين الرجل ابتسامة هادئة.. حين طلب قهوة له ونسكافيه لها.. اطمئن.. إذن ستأتي.. غادر مسرعاً ليلبي طلبه.. تردد في سمعه صدى كلمات مصطفى يرددها هشام " أواثقة أنت من نفسك فلا يدخل عالمي غير الواثقات بأنفسهن "

يجاوبه مصطفى "فكل من اقتربت مني احترقت وكل من دخلت عالمي اغتربت"

مضت الساعات ثقيلة.. وهو جالس ينتظر.. صاحب المكان.. يشفق عليه وهو يراقب من بعيد الصمت.. صوت الهواء وهو يحرك الأوراق، أيقن أنها لن تأتي وأنها اغتربت.

اكمل شطر القصيدة أرسل إليها برسالة عبر المحمول اخبرها بأنه لم يعشق سواها ويمنحه قلبه ويودعه لديها.. وإن ضاقت به، وخلت دُنياها منه، أوصاها أن تحرقه لتطهره من كل حب عرفه

قبلها، وأن تنثره كرماد فوق الطرقات التي مشيا فيها، واشتبكت ايديهما عندها، وفي المفارق حين كان يهبط الليل، وتمضي مسرعة وفي كل الأماكن التي لم يعرفها سواهما... وفي النهاية أن تتخلص من بقايا قلبه في هذا المكان.. عند قرب النهر.. وفي لحظة وداعه، تتذكره وهو يقبل باطن يديها، وتتركه في هذا المكان وتلقي عليه نظرة أخيرة.. وتمشي في طريقها.. ولا تتوقف أو تتلفت لندائه.. وأن تردد في نفسها، ما كان إلا طفلاً تحكمه الغرائز !!.

الأرواح السبعة

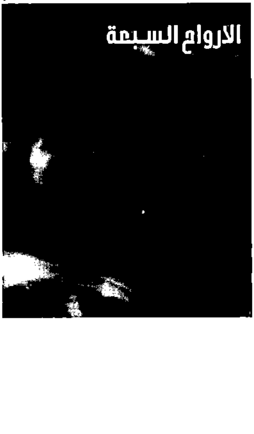

استيقظ في فزع، تنبه أنه كان يحلم.. حلماً طويلاً، انتهى بسقوطه في هوة سحيقة.

تلك السقطة أيقظته، نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط، عقاربها تشير إلى الثامنة باقي ساعة على الموعد.

أسرع في ارتداء ملابسه، التقط كراسة من على المائدة، هبط الدرج وهو يحكم الحزام الجلدي على وسطه، بحركة سريعة من يديه تهدل القميص على جانبيه.

مسرعاً الخطى اتجه إلى الشارع العام تراوده أحلام كبيرة، فبالأمس أخذ موعداً مع مسئول في قصر الثقافة ليعرض عليه الرواية، أتمها من عدة شهور، ظلت حبيسة الأدراج، حتى جاء هذا الموعد ليحي آماله.

أوقف سيارة أجرة.. رغم ما في هذا الفعل من تهور، إلا أنه أراد ألا يفوته لقاء المسئول.

فتلك هي البداية.. مُوقناً من إعجاب المسئول بروايته.. تتابعت في مخيلته صورة الرواية وهي مطبوعة في كتاب يحمل اسم الرواية

في أعلى الصفحة ثم اسمه باللون الأسود، انتبه على صوت سائق السيارة يطلب منه تحديد المكان.

اختلط عليه الأمر فهو لا يعرف أين قصر الثقافة.. ألقى بحيرته على سائق السيارة.. شيء لمع في عين السائق.. المشوار طال أكثر من اللازم، أكثر من نصف ساعة ولم يصل بعد.. ضحك السائق وقال : " أين تظن نفسك ؟ ألا ترى الشوارع مزدحمة ؟ وحين حانت فرصة ومحاولاً إيهامه بأنه مسرع، انحرف نحو اليمين ثم اتجه بسرعة نحو اليسار..

في تلك اللحظة ظهرت قطة تجري مسرعة في الاتجاه المعاكس للسيارة، صدمها السائق وألقى بها على الرصيف.

أتته صرخة القطة مختلطة بسباب السائق.

انسحب من داخله الأمل.

حاول بأي شكل أن يترك السيارة، سأل السائق : "كم بقي على قصر الثقافة؟ " أشار له بيديه أنه في آخر الشارع.

أخرج من جيبه عدة جنيهات أعطاها للسائق، طالب بالمزيد.. اختلفا حول الأجرة.. وبحركة مفاجئة مد السائق يديه إلى الكراسة التي يحملها.. " وهذه تكمل الأجرة " باستهتار قال السائق.

لم يصدق ما حدث.. شعر بهوان شديد.. أحس برغبة عارمة في البكاء.. توسل إليه أن يعيد روايته.

حينما نظر السائق إلى الكراسة وجدها لا تساوي شيئاً.

استغرب من حال الفتى وتمسكه الشديد بهذه الكراسة البالية فردها إليه.

أخذها وابتعد مسرعاً في اتجاه قصر الثقافة.

بعد مسافة طويلة وصل إلى هناك ولحسن الحظ كان المسئول لم يصل بعد.

فضحك في أعماقه لتصوره أن المسئول كان يجلس في انتظاره.

بعد ساعة وصل المسئول، التقاه في ممر قصر الثقافة.

أخذ منه الرواية بعد أن تذكره بشيء من الجهد.. أخبره أن يمر بعد عدة أيام حتى يعرف مصير روايته.. انتهى الأمر في لحظات.. ظل واقفاً في الممر لا يصدق أن اللقاء انتهى،فلقد رتب في ذهنه أشياء كثيرة تقال ومناقشات طويلة تدور.

نكص على عقبيه عاد إلى الطريق الذي عرفه جيداً.

ظل يمشي حتى وصل إلى الرصيف الذي سقطت بجواره القطة وجدها ساكنة ودماؤها نازفة.

أربكه المنظر لم يدر ماذا يفعل ؟ أدرك أنه لا يملك القدرة على فعل أي شيء.

عاد إلى منزله يدور في رأسه كل ما حدث.. السائق وتطاوله

عليه.. هل يفلت بفعلته؟ المسئول وإهماله هل يظل في موقعه ؟ القطة ودماؤها النازفة.. جريمة من؟ الرواية وحقها في النشر أو النسيان !!

في صبيحة اليوم التالي.. سار في نفس الاتجاه.. كأنما أراد أن يؤنس روايته وهي حبيسة الأدراج.. تشكو الإهمال في قصر الثقافة.

في مسيره رأى القطة انتفخت.. صدمته رائحة كريهة.. ابتعد في اتجاه قصر الثقافة دار حوله.. ثم عاد إلى منزله.

في اليوم التالي فعل نفس الشيء.. سار في الشارع.. ظل يكرر أسماء المحلات، ألقى نظرة سريعة على القطة، هاله أنها أصبحت جافة تماماً.

تكاد تتلاشى وتندمج مع أسفلت الطريق.

أتكون هذه هي النهاية ؟

وصل إلى قصر الثقافة.. طلب مقابلة المسئول..يؤرقه مصير الرواية.. بعد فترة لم يشعر بها.. التقى المسئول.

بادره بالثناء على أسلوبه والفكرة العامة للرواية.. أشرق الأمل في نفسه.

أفهمه المسئول أنه ليس الوحيد الذي يقرر صلاحية الرواية للنشر، هناك لجان وأشخاص أعلى منه.. أدرك أن في الأمر شك..

تجرأ وطلب الرواية.. دهش المسئول منه حاول أن يجعله يصبر قليلاً.. في تصميم غريب أراد الرواية.

قام المسئول إلى أحد المكاتب وجلس في استرخاء.. ثم مد يده وفتح الدرج الأيمن.. في تلك اللحظة تذكر الفتى السائق وهو يعبر الطريق ويصطدم بالقطة.

مد المسئول يديه بالكراسة أعاد إلى ذهنه حركة السائق وهو يخطف الكراسة.. ملامح المسئول تاهت في صورة ضبابية امتزجت لديه بملامح السائق.

علت الدهشة وجه المسئول من التعبير المرسوم على وجه الفتى.. تحسس روايته.. فتح غلافها وقع بصره على تأشيرة صغيرة بالخط الأحمر، واضحة قاطعة : " لا تصلح للنشر ".

ابتسم في صمت.

وخرج إلى الشارع سار في الطريق.

لم ير القطة.

تلاشت في تراب الطريق.

عاوده السؤال بقسوة : " أتكون هذه هي النهاية ؟ ".

سيد الأدلة

في هذه المرة طالت غيبتها.

منذ ثلاثة أيام أو أربعة اختفت.

أحست بوحشة شديدة، خوف مجهول يعتصر قلبها.

أين أنت يا أمي ؟ هتفت بداخلها.

عندما صعدت الدرج كان يحدوها الأمل أن تطل عليها، وهي تصرخ على عصام، الذي يقيم في الدور الأول، كما اعتادت أن تفعل!!

تجاوزت شقته وظلت تصعد وهي تترقب رؤيتها، صدها قفل عنيد معلق في رتاجه لا يريد أن ينزاح.

هبطت السلالم العتيقة، لفحتها برودة الهواء المشبعة برائحة خانقة تنفرد بها البيوت القديمة والمداخل الضيقة.

همت بالطرق على باب شقته.. منعها تباعد الرؤية وندرة اللقاء – والفرحة الخفية التي تسرى فيها حين تلقاه، ترددت ثم فوجئت بالباب يفتح كان هو.. عصام.. منذ عام أقام في بيت أمها.

رغم خلافه الدائم مع أمها من أجل الإيجار والمياه وأشياء أخرى، كانت تميل إليه وتتكتم هذا الميل شعرت بحيرته لوقوفهما معاً.

ألفت في عينيه نظرة مودة – تود لو طالت – سألته عن أمها.

أبدى امتعاضاً - صدمه الواقع وهو يحلق بالخيال - ثم أردف في ضيق أنه لم يرها منذ أيام.

سعل وهو يحدثها عن الحزن البادي في عينيها، ود لو أطلعها على حقيقة العجوز، وما تسببه من مضايقات وإهانات.

خشي من إفلات الشعور الخفي بينهما.

حاول أن يقول الكثير لكنه تراجع؛ أمسكه الخوف ولزمه الصمت.

رغماً عنها أحست بضرورة الانصراف شعرت بشيء في الأفق يلوح، فغيبتها طالت هذه المرة. ألقى بنظرة إلى السماء هاله تجمع السحاب الداكن في مجموعات متتابعة.

أسرت إليه وهي تنصرف بخشيتها من عواقب هذه الغيبة.

أبتسم مُطمئناً لها.

غادرت المكان.

داخله شعور مبهم بأنه سيفقد.. هذه اللحظة.. كما أعتاد أن يفقد كل شيء.

كان يعذبه التوق للخروج من هامشيته إلى رحاب الدنيا الحقيقية.

أوقعه حظه العاثر في هذا المكان.

أحالت العجوز حياته إلى جحيم.

هددته أكثر من مرة بطرده من الشقة.

حين التقى بابنتها لم يصدق أن للعجوز ابنة وبهذه الرقة.

زاده الأمر عذاباً ؛ ففي عينيها أمل يأتيه، يبعد عنه هامشيته، يبدد يأسه من إثبات الوجود، ينسيه الفشل في تلبية الأشياء اليومية التافهة.

حين رآها.. نفذت إلى قلبه، انقلبت حياته من لون باهت إلى لون ناطق متوهج، ذاب فيه. وأصبح لحياته معني .

حاول الاقتراب أكثر صدمه الواقع ؛ فهى لغيره.. ومحال أن تكون له.

في طريق عودتها تمنت لو رأتها الليلة وألزمتها بالكف عن جولاتها خارج الحي.

لو رأتها الليلة لكشفت عن معرفتها سر الغياب.

سوف تنهي المسألة !!

لا بد أن تكف عن الخروج لو كان معاش الأب وإيجار شقة عصام غير كافيان لها، ستمدها بما يكفيها لتكف عن التسول، غداً ستحسم الأمر.

في منتصف الليل عاد زوجها من عمله، همت بإخباره عن غياب أمها.

باغتها بالهجوم وضيقه ببخلها وتسولها المحرج له.

أدركت حينئذ أنه لا فائدة.

انسابت دموعها في صمت.

لو كانت تستطيع أن تذهب إلى عصام ليشاركها همومها وبحثها وتشاركه همومه.

ولكن أين هو وما السبيل ؟ والقيد يلتف حولها، يذيقها العذاب ولا مهرب منه.

في الصباح أشار زوجها – وهو يلوك الطعام في فمه – إلى خبر صغير في الجريدة "العثور على جثة سيدة مسنة موضوعة داخل جوال" لم تستطع إن تنظر إليه.

غامت الأشياء من حولها.

تذكرت وهى تسعى إلى قسم الشرطة في ذهول.. أنه لم يهتم، وأنه أكمل الجريدة.

بعد فترة من الانتظار آتاها ضابط المباحث بصورة القتيلة وبعض ملابسها.

حين وقعت عيناها على صورتها ندت منها صرخة حادة مكتومة.

لم يفزع عصام حينما سمع دقات متوالية على باب شقته.

فمنذ إقامته في بيت العجوز وهي لا تتركه يستريح.

تلاحقه وتطارده في هبوطه وصعوده، من أجل الإيجار ومن أجل الشجار ذاته.

تمطى وهو يسير نحو الباب، أتته أصوات جلبة من الخارج، وأقدام تسعى في هرولة منتظمة.

فوجئ بالضابط يسأله عن صاحبة البيت، بدا سؤالاً روتينياً لا يحتاج للإجابة..

هم الضابط بالانصراف.

همس له المخبر بضرورة اصطحاب عصام للقسم.

أمن الضابط على كلامه بإشارة من رأسه، أذعن عصام في صمت.

في طريقه للقسم.. داخل عربة الشرطة.. تذكر المشاجرات التي لا تنتهي، والمطاردات التي تبدأ أول كل شهر.

ومحاولات مقززة لاسترضائها حتى لا تمنع عنه المياه.

تلك العجوز.. اكثر من مرة حاول أن يضع حداً لكل شيء.. لكن وجه منى.. حال بينه وبين ما انتوى.

في اليوم التالي طلب ضابط المباحث من منى التوجه معه إلى منزل أمها لمعاينة المسكن.

صدمته ؟! - عند الدخول - رائحة كريهة، الغرفة قذرة، أشياء بالية ملقاة، بقايا طعام، اجوال، وأشياء أخرى مكدسة.

دلف الضابط إلى الغرفة الثانية، دهش من عدد علب الصفيح المخبأة اسفل السرير.

اقترب في حذر.. وهو يكتم أنفاسه.. مد يده تناول أحد العلب فتحها.. رزم من النقود. أحصى ما جمعه بلغ اكثر من عشرين ألف جنيه. ثروة تركتها العجوز دون أن يمسها القاتل !!.

بدا ضابط المباحث في إصراره على اتهام عصام مسخر من قوة لا نعرفها.

ومنطق للحياة لا نفهمه.

وعناد تتحدى به معدومي القدرة والحيلة.

تحرياته تلزمه باتهام عصام، لا دليل ولكنه مستمر في دأب على تجميع هفوات اللسان واحتدام الخلاف بين عصام والعجوز.

يحكم حلقاته من حوله ويدبر خططه للإيقاع به.

أفضى إلى "منى" بنتيجة تحرياته.

فزعت من تخيل عصام قاتل، فنظرة عينيه الودودة.. وصوته الهامس.. لا يمكن أن يكون القاتل.. بذكاء شديد أتم الضابط قصته : "أثناء مشاجرة بينهما احتد عليها، دفعها بشدة، هوت إلى الأرض، جثم فوقها.. كتم أنفاسها.. دون أن يدري.. ماتت بين يديه !!.

تساءلت وهي تنتحب، لكن الجثة وجدت بأرض فضاء موضوعة داخل جوال.

ابتسم في دهاء وواصل نسج خيوطه.. بعد موتها اغلق الشقة ونزل مسرعا إلى غرفته.

ثم حضرت أنت وسألتيه عنها، أنكر رؤيتها.

وحين غادرت صعد إليها وفتح القفل بالمفتاح الذي نزعه من رقبتها، قيدها ووضعه في جوال.

ثم ألقاها حيث وجدناها.

هو القاتل بلا شك.. اتسعت عيناه في لمعة خبيثة.. وقال لها هامساً : "هذا سبيلك للحصول على المبلغ كله" !!.

عذبتها الحيرة كيف يكون هو؟

كادت أن تكذب ما سمعت لكن من قال للضابط أنها سألت عصام عنها ؟.

مرت أيام على عصام وهو محجوز في حجرة معتمة، أرهقه الحبس، عذبه صوت أنين لا ينقطع مجهول المصدر.. يأتيه من داخل الغرفة ومن خارجها.

انقطعت صلته بالعالم.

في الظلام كان يأتيه وجه "منى" يؤنسه للحظات وسرعان ما يختفي.

بدت الأشياء غير منتظمة، فما بقاؤه هنا ؟

وماله واختفاء العجوز ؟

وما تلك القصص التي يرويها الضابط عن مقتلها ؟

وجود الجثة في مكان خال موضوعة في جوال.

في لحظات كان يدركه سرور خفي بغيابها الأبدي.

باغته أحد الضباط : "كيف قيدتها يا عصام" ؟

تجمد الدم في عروقه.. تجمعت حبات عرق على جبينه.

زاحمه إحساس عنيف بالحصار وصعوبة التنفس.

حين أغمض عينيه رأى العجوز تصرخ في وجهه، بدت – كشبح يقاوم الاختفاء تطارده حتى في غيابها الأبدي.

طلبت " منى " أن تلتقي بعصام.

فكر الضابط قليلاً ثم سمح لها بمقابلته.

حين رأته أنكرته، تحول إلى شبح هزيل، فقد القدرة على الوقوف، نظرته تخلو من معنى طالما أسعدها، أصبح مشوشاً، طليق اللحية.

روحه ترزح تحت وطأة عذاب لا ينتهي.

أقبل عليها ما بين يقين من وجودها وخوف من اختفائها وسط الظلام الحالك.

توسل إليها أن تجعلها تتركه، وتكف عن مطاردته.

أكد لها انعدام الصلة بينه وبين موت أمها.

كانت فرصته الوحيدة في النجاة أن تصدقه.

تمسك بلحظات الود بينهما.

الحب الذي يسري صامتاً فيهما، بوجهها الذي يأتيه كل مساء.

كادت أن تصدقه، ولكن من أخبر الضابط بسؤالها عنها ؟

شعر بابتعادها.

حاصرته الشكوك، حتى هي تظن أنه القاتل، انقطع ما بينهما.

غادره الأمل وحل مكانه صمت عقيم.

أتته أصوات غائمة، سأله وكيل النيابة عن اعترافه، أنكر أن يكون عذبه أحد، لقد تركوه في حجرة معتمة، خلت من كل شيء إلا وجه العجوز يطارده وصوت أنين لا ينقطع.

كل الأشياء فقدت معناها، حتى الوجه الرقيق تحول إلى شاهد إثبات.

أدركه صمت لم تفلح كل الأسئلة في إنهائه.

في كونه القاتل وجد الخلاص.

حقق لضابط المباحث ما يرجوه من انتصار.

وأهدى إليها ثروة العجوز.

في كونه القاتل أدركه يقين أنه سيترك المهمشين، سيكون له دور.

ألمت به نظرة شاملة، ابتعد عن اللحظة، ترك السهل للمهمشين وترقى قمة الجبل.

شعر باجتياحه لمناطق لم يألفها من قبل.

أسعده أن يكون هو صاحب الاختيار في تقرير مصيره.

امتلأت عيناه بنظرة ود عميقة امتزجت بخليط من الطيبة والعذاب.

شملته محبة ونسيان من أجل ما هو أهم، بدا وكأنه مكلف من قوة طاغية أن يكون هو القاتل!!.

في أعماقه لم يحزن لهذا الاعتراف ؛ فقد تمنى هذا الشيء كثيراً..

وحدثته نفسه : "بأن الفاصل بين التمني والفعل لا يكاد يرى".

فارق دقيق بين البطولة والجريمة لا يكاد يرى.

فيما تلى ذلك من أيام، بدا عصام وقد شمله هدوء ولفه يقين ثابت.

وغمرته قوة روحية هائلة.

كان السجناء لا يصدقون أنه قاتل.

فخبرتهم تميز القاتل وتعرفه.

ضباط السجن متعاطفون معه.

حياته أصبحت تهم الجميع.

انفرد بنفسه قرأ مقالات عديدة عنه وعن الجريمة البشعة التي ارتكبها.. أحد الصحفيين كتب قصته، تناولته الأخبار. لم يعد مهمشاً.

أثناء محاكمته عاود اعترافه، أصر عليه.

ازدحم المصورون عليه، كاد أن يصعق من الاهتمام.

أين كان هؤلاء ومحاولاته للحياة يبددها الفشل ؟!

حاول المحامي المنتدب أن ينفي الصلة بينه وبين الجريمة ؛ فالنقود لم تسرق، وخلافات الجيرة لا تصل للقتل.

كل ذلك بدده الاعتراف.

مضت شهور.. في طريقه للرحلة الأخيرة أصطحبه حارسان.

أثناء سيره في الممر الطويل الضيق مرت حياته أمام عينيه كفيلم سينمائي انتهى – دون أن تتوقف آلة العرض – فاستمر الشريط يدور في سواد معتم تتخلله ومضات كالبرق الخاطف تحمل إليه صورا شتى.. طفل يسعى بين والديه، وجه منى يقترب منه في محبة ثم يختفي، وجه العجوز وهي تضحك ضحكة مخيفة.

تسرب لنفسه شكٌ في كل شيء.

أذلك وهم ؟ هل هو كابوس وسيصحو منه ؟

هل حقا ستنتهي أيامه وحياته ؟

بدأت قواه تخور.

حلقات الوهن بدأت تتكثف حوله.

مضت الأحداث سريعة، حاملة الحقيقة مجردة.

كل شيء يذوب ، إلا وجه العجوز، امتلكته رغبة جنونية في قتلها !!

أوقفه الحرس، عند سماعه ضابط السجن يتلو الحكم التفت إلى الموجودين عدا الحرس رأى رجال يقفون إلى جوار باب الغرفة،

لمح بينهم محاميه – هذا الرجل لا يتخلى عنه حتى لحظته الحاسمة – ساد سكون عميق في أرجاء الغرفة.

أدركه عذاب لا يحتمل.

حين حسم الأمر ندت منه صرخة مكتومة.

في تصلبه بدا كمن اشتبك في قتال عنيف مع شبح يقاوم الأختفاء، امتزجا واختفيا في دوامة سوداء واستحالا إلى مجرد أنين لا ينقطع – مجهول المصدر يأتي من داخل الغرفة ومن خارجها على السواء.

وبدا إنه لا سبيل للخلاص.

اللمسة الأخيرة

في محاولة للإمساك بنقطة البدء..

لحظة التكوين.. بداية العلاقة.. اكتمال الكينونة.. تماس عالمهما.

أعياه العقل، وخانته الذاكرة.

فالبدايات تستعصي – دوما – على الإمساك.

تفلت الأشياء في دورانها المستمر.

دوماً – تحتاج الأشياء للبداية، انهمار المطر أوله قطرة، بيت الشعر أوله كلمة انبلاج الفجر، ذهاب العتمة، رسم اللوحة.. لابد له من بداية.

أكان ذلك يوم الاثنين أم مساء الأربعاء ؟

لا يدري فالبون شاسع، عشرون عاماً تفصله عن اللحظة التي يتشبث بها !!

يعود إليها كلما أضناه الجهد وأعياه الإرهاق في البحث عنها.

يغوص قلبه.. يدكه ألم ممض.. فهي لا تأتي.

شقي الروح في عالم لا يخلو منها رغم قربها !! رائحة عطرها..

غياب الجسد في لياليهم الممتدة عبر الزمن.

لذة الاندماج في فرحة كونية.. لوحاتها المرسومة بدقة.. قصائده المنشورة في كبريات الصحف.. ديوانه الوحيد.. صدق المشاعر.. احتواء الوجود.. حتمية الفراق.

في سعيه اقترب من لحظة تتوسط ما بعد اللقاء.. دعته لمرسمها.. بهرته الألوان.. شدته لوحة.. استغرق في اللون البنفسجي.. امتزج بعشق مع ظلال الشمس.. احتوته رمالها الصفراء.. أخذته إلى اقتراب الرحيل في لون أسود قاتم.. ممتد كالبحر.. في سوداوية عميقة عند حافة اللوحة.

أدركته لهفة الموعد.. خروجه عن مألوف عاداته.. تأمله للأشياء.. نفاذه إلى قلب الوجود.. تدفق شتى المشاعر داخله.. كيفية اقترابها منه.. هدهدتها لمشاعره.. بسطها لانطوائه.

اقترب أكثر من عالمها.. أربكته النهاية القاتمة للوحات.. أسرته البقع اللونية المنتشرة عبر لوحاتها في جاذبية مذهلة.

تركها والدها وهي صغيرة.. شبت وظل اسود يحتل مكان والدها.. تسربت إليه كراهية صامتة.. ومشاعر غاضبة.. فرضت اللون الأسود كخلفية ثابتة للوحاتها.

رغم حديثها الساعات الطوال.. لم تذكر أمها بشيء..

تذكر أنه حين التقى بأمها مصادفة.. شده التشابه بينهما..

أدرك ما بينهما من صراع.. يختبيء خلف جدار سميك من التجاهل.. لم تفلح الأم في اجتيازه !!

باغتته ذكرى بعيدة، بداية تكوينه، أمه جالسة تشاهده وهو يلعب مع فريق المدرسة كرة القدم، حاول أن يبذل جهده، أن ينسى بغضه وفشله مع الكرة.. أمره المدير أن يتجه يميناً لتلقي الكرة اتجه يساراً وفي اتجاه بعيد ليلتقي بأمه.. وصدمته عيناها بنظرة.. أوشت بأنه الأسوأ.. وقف مبهوتاً غزاه رعب مفاجيء أن تتركه وتأخذ غيره.. أدركه اليأس في رضاها.

انزوى.. حتى غادر الجميع المكان.. ووجد نفسه يهمس بكلمات،ظل يرددها.. امسك ورقة وقلم وأخذ يكتب أول قصائده... وحتى هذه اللحظة عندما يشعر بالعزلِة.. ينزوي.. ويكتب حتى ذاعت قصائده.

لكنه لم يتنازل عن عزلته حتى فاجأته هي.. في وحدته وعزلته.. وانسابت إليه.. ونفذت إلى صميم وجوده.. محطمة قوقعته.. منهية هامشيته.. تشبث بها.. تعلق بكينونته معها.. لاح له الفجر ممتدا عبر الزمان.. لم يعد بحاجة للانزواء.. لا ينتظر أول قطرة أو أول كلمة.. هي.. هي وبعدها لا شيء.

كانت تبحث عن أبيها، لم تفلح في العثور عليه..

وفي سعيها وجدته منزويا، يعكف على قصيدة، يرددها لذاته.

شعرت بالرغبة في النفاذ إليه.. الاقتراب منه.. أن يمتزج فيها.. اطمأنت إلى تعلقه بها.. أدركت أنها صارت كونه الخاص وعالمه الوحيد.

لم تدر – فيما بعد – لما انقلبت عليه.. تركته في نعومة وليونة.

لم تكن غاضبة، أو هاجرة، بل دهمها فراق صامت.. رأته في لون أسود يحدد لوحاتها.

رغم كل البهجة معه، كانت تخشى أن يتركها هو.. ويرحل كالآخرين.

جعلت من اللون الأسود سيد الحافة، اللون الأخير في لوحاتها.

رغماً عنها تركته، محبة له بلا وصال.. أبقت الود بينهما.. أن يأمل – دوما – في عودتها !!

في وحدته وألمه لا يدري سبب تغيرها ؟

كانت روحه تذوي، ووحدته تلقي عباءتها السوداء عليه.

وجد نفسه مقيداً لا يقوى على الانزواء.. قيد حديدي.. يغل يده.. ولا يمكنه الفكاك !! وأنه مصير محتوم.

أثاره مشهد في أحد الأفلام، البطل مقيد إلى كرسيه بقيد حديدي.. يروح ويذهب حاملاً كرسيه.. متعللاً بقيده.. حضر الضابط.. أمره أن يبسط يده ويثني معصمه في لحظة انفك القيد عنه.. ترك كرسيه والقيد يتحرك بلا أسير !!

فهل يستطيع منها فكاكاً ؟

كان رحيلها المفاجيء صدمة.. رغم أن أحوال شتى وشت به.

لاحت له بوادر كانت تؤكد رحيلها.. ولكنه آثر الكتمان والطي.. عصفت به الغيرة.. لكنه أبطن الجد وأظهر الهزل.

فهي.. هي.. وبعدها لا شيء.

فما بينهما انبثق من الروح والقلب والجسد.. فهل يكون وهماً ؟

هل يمكن أن يوجد مرة أخرى في الكون.. كل الكون.. ما كان بينهما ؟

حاول أن يثني يده.. يحطم معصمه.. أن يقتلع قلبه !!

في لحظات أدركه فرح مفاجيء بقرب الخلاص.. بدنو الأجل.. بانزواء الروح إلى السماء.

وفي لحظات أخرى يستبد به الشوق.. يجلس إلى كرسيه مقيداً بحبها ينتظر عودتها !!

أعياه البحث.. وغمره شعور رهيب بالنهاية..

لما فعلت ما فعلته ؟

هل رأت طفلا أفضل منه يجيد لعب الكرة ؟

أم انسابت إلى طفل آخر مهمش، ينزوي إلى أحد الجدران، يشخبط الألوان، فاخترقت عالمه.. ونفذت إلى صميم وجوده.. كي ترسم باللون الأسود اللمسة الأخيرة في لوحتها الجديدة !!

بلا ثمن

في غرفة صغيرة مربعة الأركان جلس مطرقا برأسه في صمت يحاول أن ينظم شتات أفكاره المبعثرة وأن يتفهم ما حدث.

منذ شهر فقط كانت حياته على وشك أن تمضي على وتيرة واحدة لا تتغير، وكاد أن ينسى مع حياته الجديدة الهادئة كل هموم الماضي.

حتى سمع ذلك الصوت وتلك الخطوات تسرع من خلفه فعاد الماضي يطارده من جديد.

كان الطريق غارقا في الظلام فلم تتح له الرؤية.

هم أن ينظر إلى الوراء أمسك الخوف برغبته تلك ومنعه من الالتفات إلى الخلف ودفعه إلى الإسراع في مشيته ثم جعله يعدو بأقصى ما يستطيع.

لاح له في آخر الطريق جداراً قائماً فانطلق إليه بعد أن تعمد عدم الاقتراب منه حتى حانت اللحظة المناسبة فعرج عليه بسرعة وفي إحدى زواياه اختبأ يصغي بسمعه إلى الطريق.

أتاه صوت الهواء وهو يحرك بقايا الأوراق المتناثرة على الأرض ممزوجاً بمواء قطط شاردة، خالياً من تلك الخطوات التي كانت تتعقبه.

قام من مخبئه وشعور بالأمان يتسرب إليه.

شد قامته قليلاً ثم انثنى خارجاً من وراء الجدار.

في طريقه اصطدمت قدمه بشيء انحنى بحذر شديد تحسس هذا الشيء ملأه الرعب واندفع مسرعاً إلى غرفته.

وما أن صعد حتى أغلق الباب ودس المفتاح في ثقبه وأداره عدة دورات وألقى بجسده المجهد على السرير متطلعاً إلى سقف الغرفة وكل ما حدث يدور أمامه من جديد.

ومن أعماقه تراءت له صورة يشوبها الضباب لطفل يمسك شمعة صغيرة يجتاز على ضوئها ممراً ضيقاً يؤدي إلى فناء منزل قديم.

في نهاية الممر الذي يبدو على شكل نفق طويل رآه وهو يسدد مديته في ضربات متتالية وحين أيقن أنه أجهز على ضحيته ولى مسرعاً.

وفي نهاية النفق التقيا وفي اللحظة التي تطلع الطفل إلى وجه القاتل انطفأت الشمعة وساد الظلام.

في اليوم الثالث وجد مع جاره استدعاء إلى قسم الشرطة.

انتابه خوف شديد من هذا الاستدعاء.

وظلت صورة الرجل ومديته عالقة بذهنه لا تغادره إلا لبروز صورة الطفل وهو يمسك الشمعة صارخاً في الظلام ثم تعقبها لحظة اصطدامه بذلك الشيء.

شمله دوار عنيف وشعر بإرهاق شديد ورغبة عميقة في النوم.

وجد نفسه عائداً من المدرسة فوجيء بباب الغرفة محطماً وصورته منزوعة من مكانها وقطع الزجاج متناثرة حولها وخيط من الدم يتسرب منها.

بحث عن والده لم يجده في أي مكان.. وحين استيقظ داهمه خوف عميق وشعر بحنين شديد إلى أبيه.

في اليوم الخامس وجد في انتظاره شرطياً أفهمه أن عليه أن يستجيب للاستدعاء السابق توجيهه إليه وإلا سيعرض نفسه لغرامة مالية ثم أضاف بلهجة المطلع على الأمور : إنك مطلوب للشهادة في قضية هامة.

قفزت إلى ذاكرته صورة الرجل.

تذكر تلك المدينة التي اضطر أن يتركها هو ووالده بعد أن قتلت أمه وهو طفل صغير.

لم يستطع والده حينذاك أن يتعرف على أحد المجرمين الذين قبض عليهم.

تركا المدينة ومرارة الألم تملأ والده لإفلات المجرم من العقاب.

وفي صباح اليوم السادس توجه إلى قسم الشرطة تتنازعه مشاعر الخوف من أن يواجه القاتل فلا يستطيع التعرف عليه ومشاعر الرغبة العميقة في الخلاص من هذا الأمر كله حتى لو أفلت المجرم ثانية.

دلف إلى المحقق وجلس صامتاً منتظراً أن يحدثه المحقق بما يريد : " أهلاً سيد حسن، لماذا تأخرت علينا كل هذا ؟ " سأله المحقق.

فارتج عليه القول كيف يمكن أن يحكي له هروبه المستمر مع والده منذ أن كان طفلاً صغيراً خوفاً من القاتل الذي يطارده في أحلامه.

أراد أن يقول : "يا سيدي إنني لم أر سوى شبح، ولم استطع التعرف عليه فقد انطأفت الشمعة".

ولكنه تلفع بالصمت.

ثم قال مستفسراً : "ما هي القضية أيها الضابط ؟ "

بدا له أن كلمة (أيها الضابط) تبدو منزعجة وفيها بعض التطاول.

أراد أن يقول شيئا آخر ولكن عجز عن ذلك.

وخفف من قسوة شعوره أن المحقق ابتسم وقال : " لا داعي للانزعاج إننا نريد فقط أن نعرف أين كنت منذ خمسة أيام ؟ ".

تذكر الصوت والخطوات اللاحقة به تذكر الجدار واختباءه واصطدامه بذلك الجسد، وعودته إلى غرفته فقال بعد برهة منحيا كل ذلك جانباً : " كنت في غرفتي.. قاطعه المحقق : " ألم تغادرها في ذلك اليوم أبداً ؟ ".

" بضع دقائق تجولت في الشارع الخلفي لـ (بين السرايات) وعدت إلى غرفتي مباشرة".

قال ذلك ليقطع الطريق على المحقق في استنتاجه أنه يتهرب من شيء ما.

اقترب المحقق منه وقال له هامساً: "ألم تر شيئا في هذه الليلة؟".

كيف يصور له مأساته أنه كان موجوداً ولكن لم يستطع أن يرى وجه القاتل فلقد كان الظلام مخيماً وضوء الشمعة قد انطفأ.

تردد قليلاً ثم قال : " لا.. لم أر شيئاً "

وأكمل داخل نفسه حتى لو كنت رأيت فما الفائدة ؟

خرج من قسم الشرطة ولديه إحساس بالذنب لأنه تعمد إخفاء الحقيقة.

في اليوم التاسع كثر الكلام حول جريمة قتل ارتكبت في شارع (بين السرايات)، مزقت في الجثة وشوهت معالمها ولم تستطع الشرطة أن تتعرف على القتيل بعد أن سلبت كل أوراقه.

حينما استمع إلى تلك الأحاديث المتناثرة حول الجريمة أدرك عليه الآن أن يتعرف على قاتلين لا على قاتل واحد.

انتابه خوف عميق وأدرك أنه في خطر داهم.

قرر أن ينتهز إجازة نصف العام ويعود إلى أبيه كي يحتمي به من ذلك المجهول الذي يريد أن يقضي عليه.

حين واتته هذه الفكرة شعر براحة عميقة.

وبدا له رغم كل ما مر به أن بدء الإجازة شيء سار.

وأدرك فجأة أن العالم واسع جميل وأن بقاءه في ذلك الشارع وملاحقة القاتل سوف يصيبانه حتماً بانهيار عقلي.

حين وصل إلى منزل والده وجده مغلق.

فظن أنه لا زال في عمله فأخذ يتجول في تلك المدينة التي انتقل إليها منذ فترة قريبة.

كان يتمنى أن يبقى مع والده إلا أنه منذ ذلك اليوم الذي قتلت فيه أمه منذ خمسة عشر عاماً ووالده في ترحال دائم خلف القاتل ليقتص منه بنفسه.

حاول مراراً أن يثنيه عن ذلك كان يشعر أن القاتل يطارده – رغم عدم قدرته على التعرف عليه – لأنه هو الشاهد الوحيد.

لكن فكرة الانتقام قد استولت على والده وأصبح هدفه هو البحث عن القاتل.

في تجوالهما الدائم حاول أن يلفت انتباه والده إليه ويشعره بحاجته إلى اهتمامه ورعايته لا إلى انتقامه ولكنه لم يفلح في ذلك.

حين التحق بالجامعة زادهما بعد المكان فرقة وغربة عن بعضهما البعض.

زحف الليل على المدينة.. وهو في أفكاره.. فبدت معالمها تختفي فآثر أن يرجع إلى منزل والده.

حين اقترب لم تلح له أي بوادر للحياة وصده الظلام والقفل العنيد.

شرع يسأل عن أبيه.

فقال له أحد الجيران: "أنه لم ير والده منذ أكثر من شهر".

قال آخر: "لقد سافر إليك منذ مدة ولقد صاحبته إلى المحطة".

قالت له جارته العجوز :" إن والدك قد ترك مفتاح منزله معي، ادخل يا بني واسترح وفي الصباح سافر لعل والدك ينتظرك الآن أو يبحث عنك أيضاً".

اقتنع بكلام العجوز ودخل المنزل فشعر براحة ودفء.

وعلى أريكة خشبية في صالة المنزل جلس يقرأ مذكرات يومية دونها والده شملت تفاصيل كثيرة عن بحثه ومطاردته للقاتل.

وفي إحدى الصفحات قرأ كلمات يحدثه فيها والده كأنه موجوداً معه، كأنه لم يغب عنه هذه السنين : "ابني العزيز : لقد توصلت إلى مكان القاتل وهو يسكن بالقرب منك سوف أسافر إليك ولن أراك حتى انتقم لأمك رحمها الله ".

دب في أعماقه خوف مرعب وتجسدت أمامه صورة والده ذلك القاتل الذي تبحث عنه الشرطة وأفزعه أن يكون هو الشاهد المفترض في هذه القضية.

تحت جناح الظلام عاد إلى مدينته يتلمس الأخبار ومن طرف خفي تعرف على كيفية تنفيذ الجريمة.

هدأت نفسه قليلاً حين تأكد أن والده لم يقبض عليه.

وإن هاله أن يكون والده بمثل هذه القسوة.

شعر بحاجة شديدة لرؤية والده.

ولام نفسه على هروبه بعيداً عنه.

وتركه يتحمل مشاعر الانتقام التي جعلته يقدم على مثل هذه الجريمة البشعة.

حاول أن يعرف مكانه حتى يخبره بما يلزم عليه ويجعل حياته مطمئنة دون خوف ولكنه لم يصل إليه.

بعد مرور شهر على الجريمة طلب مقابلة الضابط المسئول عن التحقيق.

وجلس ينتظره في غرفة مربعة الأركان محاولاً أن يجمع شتات نفسه وقد نمت داخله مشاعر قوية زادته قرباً من والده وشعر أنه يصحح أخطاء الماضي وكل ما ينتظره هو رضاء والده.

لم يدعه الضابط ينتظر طويلاً فكانت رغبته في الإيقاع بفريسته أشد قوة من التوقف العابر حيال اعترافه والدافع إليه إذ أنه المشتبه الرئيسي في القضية ولولا غياب الأدلة لقبض عليه عند أول لقاء بينهما لشعوره حينذاك أنه هو المسئول عن الجريمة.

أتم المحقق أركان قضيته باعتراف المجرم أخيراً.

وامتلأ بنشوة ظافرة وهو يتخيل كلمات الثناء التي ستنهال عليه لتحقيق العدالة.

أُحيل إلى المحاكمة.

وبعد عدة جلسات بدأ يغزوه شعور بالوحدة والألم.

فلم يخطر بباله أن والده قد يمتنع عن لقاءه بعد تسليمه نفسه بدلاً منه.

وكان يترقب ظهوره كي يعبر له عن رضائه.

واعتصره خاطر كريه أن كل ما فعله لم يجعله يفوز برضاء والده.

وحفر داخل روحه جرحاً عميقاً أسلمه إلى حافة اليأس.

اندفعت إلى عينيه صورة أمه مهرولة تنادي عليه أن يبتعد، ووجد أباه واقفاً ينتظر في صمت ورويداً رويداً تعلو ضحكة غريبة على وجهه وهو يتحول إلى شخص آخر لا يعرفه، وفجأة اختفى كل ذلك وأصبح بلا معنى، كمصباح كهربائي توهج للحظة ثم انطفأ.

بعد عام من هذه الأحداث جلس شخص في مكان ما يقرأ قصاصة ورق من جريدة صدرت منذ أربعة أشهر.

وركز بصره على خبر لا يهم أحداً غيره.

((الحكم بالإعدام على مرتكب جريمة "بين السرايات" وإحالة الأوراق إلى فضيلة مفتي الجمهورية)).

وداخل أعماقه المظلمة تسربت ضحكة سوداء.

وقام من مكانه يرفع قامته الطويلة في الفضاء مطلقاً زفرة ارتياح فلن يتعقبه بعد الآن أحد فلقد تخلص من الذين يطاردونه منذ خمسة عشر عاماً تخلصاً نهائياً.

واندفع في طريقه حتى ابتلعه الظلام وعيون طفل صغير ممسكٌ بشمعةٍ لا يذكر ملامحه ما زالت تطارده ولا تبرح خياله.

السحاب الأسود

كانت القرية تسعى سعيها المعتاد؛ الآباء عائدون من أرضهم المحروثة بكفاحهم من فجر التاريخ والبذور مروية منذ عهد الجدود.

والأبناء معهم أو في أعمال أخرى سعياً وراء الرزق.

والأحفاد في مدارس مبنية من الطين وعيونهم رغم الجهد والمرض متحفزة للمعرفة وبريق عجيب يلمع في العيون من الشقاوة والذكاء.

وشيخ البلد في الدار مع الخفراء في حديث معاد عن ولاد الليل والسرقة التي حدثت بالأمس.

وبعد ما دار دور الشاي الثالث وانتهى تفرق الجميع.

وذهب كل واحد إلى داره حتى يخطف ساعة القيلولة ويستريح قبل ما يأتي الليل والسهر يحلو في دوار العمدة ويضيع النوم من العيون.

وحين خرج شيخ البلد وانحدر من البيت الكبير واتجه إلى أسفل القرية تطلع بعينيه إلى السور الممتد والذي يفصل بين بيوت القرية والحقول في البر الثاني رأى سحاباً كثيفاً يتجمع عند التقاء السماء بالأرض.

شعر بخوف مبهم من منظر السحاب لكنه لم يدع ذلك يزعجه كثيراً.

وحين مر بالمسجد حيا إمام الجامع ومضى إلى طريقه.

كانت هذه السحب السوداء بحركتها الوئيدة إنذاراً بما كان يعتمل في الفضاء من صراع أوشك أن يطبق على الأرض ولكن لم يلتفت إليه أحد.

وفجأة دب في أوصال كل حيوان خوف مبهم جعله ينطلق هارباً في الفضاء البعيد.

وتلت ذلك لحظة لاح فيها كل شيء معرضاً للانهيار، وأن السماء قد اختل النظام فيها وأوشكت أن تقع على الأرض.

كانت قوى مخيفة هائلة أرعبت كل الناس وأفزعتهم حتى أعمق أعماقهم وسيطر عليهم الخوف كان منظراً لم يره أحد من قبل.

خرج إمام الجامع مسرعاً يرى ما حدث.

وقف مذهولاً ينظر إلى السماء التي بدت وكأنما أصابتها لعنة وتبدلت من حال إلى حال وغطاها سحاب كثيف أخفى الشمس تماماً.

انطلق شيخ البلد والعمدة وأهل القرية إلى السور الممتد والفاصل بين القرية والحقول وهم لا يدرون ماذا يفعلون؟

وهرع الصغار من نوافذ المدرسة الضيقة للنجاة.

وبدا الجميع في جنون وقد شلهم الخوف وتملكهم رعب قاتل ويأس شديد حينما دوى صوت ارتطام شديد رج القرية كلها وأشعل النار عند أطراف الحقول.

وبدا وكأن نجماً من السماء قد سقط على أهل القرية.

انطلق الشباب إلى مكان الحريق يصدون النار بالمياه.

ويحملون الدلاء بسواعد أوهنها الخوف.

ولكن ما كان كل هذا يجدي.

فالنار تمتد بسرعة غريبة والرياح تنشرها في كل اتجاه.

اقترح أحد الشبان أن يحفروا خندقاً يمتد بطول السور كي يمنع النيران من الاتجاه إلى منازل القرية.

بدأ البعض وهم في ذهول يحفرون الأرض بأيديهم.

والبعض الآخر ظن أنه هالك لا محالة فأصابه جنون رهيب جعله يصرخ بأعلى صوته "يا حي.. يا قيوم" واندفع في اتجاه النار لا يلوي على شيء.

أسرع العمدة إلى داره كي يرسل إشارة إلى المركز بكل ما يحدث، لكن أسلاك الهاتف قد دمرت. وانقطع عن القرية كل اتصال بمن حولها.

تطوع البعض بالذهاب إلى المركز ليطلب النجدة من هناك.

وانتهز البعض هذه الفرصة كي ينجو من هذه القرية.

انطلق الطوفان إلى المركز.

وظل أهل القرية يحفرون بفؤوسهم الأرض دون جدوى.

وهنا دعى فيهم الإمام بالانتظام في أماكنهم صفاً واحداً كما في الصلاة.

وانطلق الجميع يبتهلون إلى الله بالدعاء وهم يحفرون.

كان لهذا الفعل أثره في تهدئة المخاوف إلى حد كبير وكذلك أثره في تنظيم الجهود.

وبدأ العمل يؤتي ثماره.

وبينما العمل مستمر والدعاء يتزايد رعدت السماء.وبدا البرق خافتاً من خلال الظلام الشامل

وما هي إلا لحظات سقطت بعدها.الأمطار كشلال منهمر.

وأخذت المياه تغمر المساحة التي تم حفرها فصنعت مانعاً مائياً حال بين النار والامتداد إلي اتجاه القرية إلا من عند أطرافها حيث احترقت بعض المنازل.

امتلأت القلوب بالأمل في النجاة مع اقتراب الأصوات القادمة من ناحية المركز لتغيث أهل القرية.

وبينما السحب السوداء تتبدد قليلاً والأمطار تواصل انهمارها رأى أهل القرية بعضهم البعض منذ بدء هذه الليلة المرعبة.

كانت صوراً وأشكالاً عجيبة التكوين ؛ كان ولاد الليل مع الخفراء جالسين متعبين.

والبعض ممن قد عاد مع عربات الإنقاذ يبحث عن ذويه.

ونساء جلسن مذهولات مما حدث.

وامرأة عجوز قد تحطم منزلها واحترق تأخذ حفيدها في حضنها تحميه من النار.

وغيرها من الحكايات التي ظل أهل القرية يتذكرونها على الدوام.

كانت لحظة شعر فيها أهل القرية بالاشتياق إلى بعضهم البعض وصارت بينهم شيئاً مشتركاً.

بدأت السماء تعود إلى طبيعتها.

والشمس تظهر في الأفق كثور عنيد لا يقبل الاستسلام للظلام.

وأحس أهل القرية إحساساً صادقاً بأن الله معهم.

ومع مرور الأيام لم ينس أهل القرية هذه الليلة المرعبة بل ظلوا يتحدثون عنها طويلاً، وهم عائدون من الحقول أو وهم يبنون بيوتاً جديدة.

في بادئ الأمر كانوا يتذكرون هذه الليلة بكثير من الخوف ثم صارت شيئاً مألوفاً معتاداً.

ثم صار حديثهم كله فخر بما كان منهم أثناء حفر الخندق.

وادعى كل واحد منهم أنه صاحب الفضل في هذه الفكرة.

وراح كل منهم يحكي حادثة حدثت له أو موقفاً عجيباً كان فيه وقتما كان الظلام مخيماً على الجميع.

وذات يوم عاد بعض من التمس النجاة خارج القرية.

وبعد أن أقام طويلاً في مدن أخرى خارج زمام البر كله خوفاً مما حدث.

ولكنه عاد أخيراً.. وحين ضمته الأحضان لم يستشعر الدفء الذي اعتاده.

واحتوته برودة سرت في أوصاله.

وشعر أن كل الأهل قد فقدوا الرغبة في رؤيته.

وحين غزا الشوق قلب أمه - اندفعت إليه - ولكن حال بينهما صوته وهو يترك القرية يوم الحريق الكبير زاعماً أن القرية ملعونة وأن الله غاضب عليها.

فمات الشوق في قلبها.

وانحدرت دمعة من عينيها تبكي شهداء ذلك اليوم.

وبدت كلمات الترحيب به كأنها تشييع لذكراه.

وأدرك أن غياب الفرحة بعودته وجفاف المشاعر من حوله كان أمراً نهائياً.

واحتواه خواء رهيب.

وبدا له أن كل ما يمكنه أن يقوله أصبح بلا معنى.

وأدرك من نظرة العيون إليه أنه لا يستطيع الوصول – أبداً – إلى مفتاح القلوب التي أغلقت أمامه.

وقام من وسط الجمع.

وترك القرية غير مأسوف عليه.

وبدأ هجرته إلى مدن أخرى.

التف أهل القرية حول إمامهم يتذكرون تلك اللحظة التي ارتفعت الأصوات فيها بالصلاة والدعاء إلى الله.

وأخذوا يستعيدون تلك الليلة المرعبة.

وانطلقت الأقوال والتعليقات والنكات.

وسرعان ما عادت القرية تسعى سعيها المعتاد.

نشارة حشب

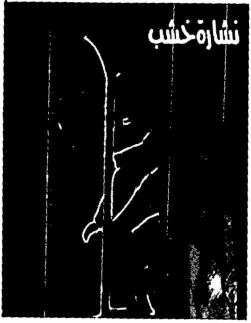

كانت عيناها تتعلق أملاً بتلك الفجوة الضيقة، ما بين ضلفة الباب والعسكري – الواقف يمنع الداخلين – كانت لا تكف عن التحديق، كتمثال ليس له إحساس سوى عينيه، ترسلهما بنداء وتوسل أن يدخل من هذه الفجوة الضيقة من ينجيها من عذاب الانتظار.

امتدت اليد الصغيرة تعبث بطرحتها البيضاء ضمت رضيعها إلى صدرها.. عبثا يحاول أن يلفت عينيها إليه.. مضموما إلى صدرها، أخفى وجهه عن أعين الناس شاخصة ببصرها تنتظر.. تلملم ثوبها الذي تغير لونه... ما عاد أبيض، ذهب لونه وتبدل حاله.

خلف القضبان.. في قاعة المحكمة.. وقفت تنتظر.. ليس جديدا عليها الانتظار.. فلقد قضت حياتها كلها في الانتظار.. منذ أن أحبته ووعدها أن يأتي.. ظلت تنتظر حتى جاء يطلب يدها.. كان يفصلها عنه باباً أيضا ومن خلاله شخصت ببصرها، رأته يخطو إلى المجلس ووالدها يرحب به.

خفق قلبها في رعشة خوف ورجاء.. وعند انصرافه وحين دخلت

أمها مسرعة.. سبقتها وهي بزغرودة عالية.. اندهاشا سكتت أمها.. وفلتت هي ترقبه من خلال الباب.

واليوم تنتظر أن تراه يمر من هذا الباب.. المحاكمة توشك أن تنعقد.. وهو لم يأت بعد !! أتراه صدق ما قيل عنها ؟

تتربص بها الظروف من كل جانب.. هذه القضبان.. الحرس.. الناس.. الكل ضدها حتى هو عونها الأخير لم يأت بعد.. !!

في عينيها رجاء أن يدخل من هذا الباب الخشبي العتيق.. كل أملها أن يُدرك احتياجها إليه.. ليجدد لها الأمل والقدرة على الاحتمال.

يبكي طفلها فتهدهده بهزة من يدها، وتسأله أن يصفح عنها، هي التي أدخلته السجن رضيعاً، أي عذاب أكثر من هذا.

شردت في صمتها، تحاول أن تبعد خيال جريمتها عنها وتلوح الأحداث أمام عينيها كشيطان ماكر يريد أن يصرف عنها الأمل في مجيئه إليها.

أصوات كثيرة من حولها.. كل سجين يتحدث مع أهله.. وهي تنظر إلى الباب.. والحاجب يظهر لها مودة مبطنة بجشع مكشوف.. سألها عن أهلها ألم يأتوا بعد ؟ وفي غياب عنه تقول.. لا.. لم يأتوا.. وفي عينيها نظرة لا تتغير.. كلها رجاء وخوف وأمل أن يأتي هو وحده القادر على أن يأخذها من كل هذا.

وفي دوامة أفكارها لم تلقَ بالا إلى أحد.. ولا إلى هذا الجالس يرقبها من بعيد كان ينظر إليها وقد أدرك ما تعانيه من عذابات.. شده إليها ذلك النداء والتعلق المستميت بالباب.. في عينيها أدرك أن هناك فرصة للخلاص.

احتوته بندائها.. تتعلق بالرجاء والخوف والمشاعر المتجمعة في عينيها.. التقى بجذورها العميقة النابعة من روحها.. حزن غريب تسرب إليه وشعور بالرهبة الشديدة مسيطر عليه.. أراد أن يقترب منها.. أن يهب نفسه دفاعا عنها.. أقعده الخوف المتربص به.. قيده الفشل القديم، قضية كانت.. لكنها الشبح الذي يطارده٩ ليل نهار.. كان إخفاقه سداً منيعاً بينها.. كيف له أن يتورط في حمل المسئولية مرة أخرى؟

أراد أن يستفز قواه، أن ينهض رغم مخاوفه للدفاع عنها.. شيء فيها يبكيه والنداء العجيب يحتويه، أمومتها طاغية، والشوق إلىٰ مثل هذه الضمة أملاً يسعى إليه.

يريد أن يلثم اليد الحنونة.. ويعبث بالطرحة الملقاة في إهمال على يد الصغير.. أراد أن يولد من جديد على يديها.

وفي سعيه أقترب منها، متعلقا بعينيها كأمل أخير.. استولى عليه إحساس طاغ بالقدرة كادت أن تلمحه في سعيه إليها.. أرادت أن تنبس له بكلمة، تاهت نظرتها بين الباب وعينيه.

هم إليها وفي داخله خوف مرعب، وقوة ملحة.. اندفع إليها يجذبه

هذا الضوء الخافت.. اللامع.. تسلل إليه شعور خفي بالسعادة حين التفت عيناهما.. رأى في أعماقها أمل يولد وانتظار يموت.

لم يعد يفصلهما غير خطوات قصيرة، في سعيه إليها اقترب منها.. شعر بعينيها تلمح الروب الذي يرتديه.. أدرك أنها تنظر إليه كمحام.. استولى عليه شعور بالكراهية لهذا اللون الأسود.. يخشى أن يجول بخاطرها أنه يريد قضية أو يسعى لزبون.. أراد أن تعي ما يعانيه من مشاعر.. حاول أن يصل إليها ذلك الإحساس المتدفق من الرغبة في اجتياز الخوف والفشل معها.. أما سعيه إليها ومد اليد إليها، وإنقاذها مما تعانيه، كان سعيه لها هو إنقاذ وخلاص له مما يعانيه، كانت رغبته أن يحيا سوياً في تلك اللحظة فوق كل المشاعر التي تستولي على من بالقاعة.. هو محام.. نعم.. لكنه إنسان.. هي متهمة.. نعم.. لكنها إنسان.

حاول أن يفهمها أنهما ضحايا هذا المجتمع بأوضاعه الشاذة.. فليس في عينيها دليل إدانة ورغم هذا رماها المجتمع في القاع، ولفظها الأهل والزوج.. وهو حتم عليه قدره أن يصارع التناقض الرهيب في كل هذا، فلا هما من الراقصين.. ولا هما من العازفين.. إنما هما.. نشارة خشب.. ألقى بهما في قاع المسرح.. تدهسهما الأحذية وهي تتناقل الخطى ويجمعها الكناسون في نهاية الأمر.. هما ضحايا هذا المجتمع.

فلتقبل منه اليد الممدودة.. ولتلتقي به ولسوف يعبرا الجسر سوياً، فلتقبل منه اليد الممدودة ويحطما الدائرة الفارغة.

أراد أن تعرف أن طفلها هو الأمل.. لا هذا الباب الخشبي العتيق، ولا من يدخل منه، حاول أن يفهمها أن السخرية من الناس ومن الحاجب ومن الحراس.. هي بداية للهزء بكل المجتمع، هي جزاء الإدانة والقسوة حين يتم خلاصها باتحادهما سيعلن بأعلى صوته.. نحن.. لسنا.. نشارة خشب.. ولن يجمعنا الكناسون في نهاية سهرتهم الحمقاء.

هيا.. أيتها الأم الحنون.. هيا أيتها المرأة الشجاعة.. وحين هم واقفاً.. داهمه صوت الحاجب وهو يرتفع مدوياً.. محكمة.. أُجبر على الوقوف احتراماً للقضاء.. لم يستطع إكمال خطاه نحوها.

انصرفت بعينيها عنه، تعلقت بالمنصة والميزان المعلق فوقها.. شعر بحنق شديد توسل إليها بعينيه أن لا تتعلق بأي شيء.. وأنه أملها الحقيقي.

فالقضاء وإن كان عادلاً بمجرد أوراق، وإن كان ظالماً – فمجرد أوراق – أما هو فخلاصها النهائي وأملها الحقيقي.

تبدلت نظرتهما.. صار ينظر إليها وكل عينيه رجاء وخوف وأمل، وانصرفت عنه.. وكل أملها أن يحكم القاضي ببرائتها.

ترك القاعة.. واتجه إلى الباب الخشبي العتيق.. وحين مر بين ضلفة الباب والعسكري - الواقف يمنع الداخلين - نظر إليها فالتقت عيناهما في نظرة أخيرة.

ارتباك الاتجاهات

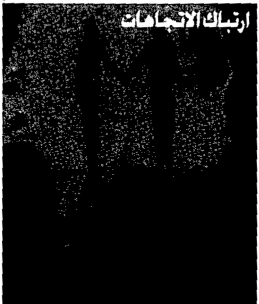

كانت جميع الطرق تعيدها إلي نفس المكان لا تجد مخرجا عما هي فيه.

باختيارها أقبلت عليه تدفعها رغبة جامحة في رؤية المكان الذي جمعهما كثيرا.

عند قرب الموعد.. تتلهف للخروج من عملها.. يلتقيان هناك.

دائما يسبقها فليس لديه ارتباطات عمل.

ولايذهب الي كليته.

علمها في هذا المكان استخدام الكمبيوتر.

ارتبط المكان بأول همسة بينهما، وأول حديث عن الكمبيوتر.

حاصرتها الذكريات لم تقو على الاحتمال غادرت المكان مصدومة.

وصلت إلي البيت منهوكة القوى.

مشتتة الفكر .. شعرت بدوار شديد .. الأرض تميد بها أسندت رأسها على الجدار قالت تحدث الفراغ من حولها : عن أي أقدام ثقيلة يتحدث ؟

في تلك اللحظة دخلت أختها تحمل اليها نبأ اجتماع العائلة.

طوت الورقة وظلت صامتة.

تناهي إلي سمعها أصوات العائلة مشتبكة في جدال عنيف.

خرجت من غرفتها تظهر تماسكها تخشى أن يرى انكسارها أحد أو تسمع كلمة شامتة عن خسارتها وانتظارها الطويل دون جدوى ؟

قال عمها : لقد مرت ثلاث سنوات ولم يحدث أي تطور ؟

بداخلها تردد صدى ايام مرت وولت.

كانت لا تسمع إلا صوت قلبها ولا ترى في الدنيا سوى حبيبها.. تحدت الجميع، أرغمتهم على قبوله.

الآن فقدت الأشياء معناها.

لم تحدد هي فواصل زمنية حين عرفته وأحبته.

لم تحدد فترة زمنية تتكون فيها المشاعر أو تحيا.

ولكنها لا تدري الآن متى انتحرت المشاعر.

من أمسك قلبها وغيبه بعيداً.. بعيداً حتى توارى عن نفسها !!

في اللحظة التي حسم عمها الأمر قائلاً : سننهي هذه المسألة الآن !! كان ينتظر دموعها ومحاولاتها المضنية المتكررة كلما أراد حسم المسالة وإنهاءها.

كان ينتظر ان تتوسل إليه لاستبقاء الصلة والرباط الذهبي مع حبيبها وان يمنحه فرصة اخيرة

في لحظة انتظاره لكل هذا سمع الجيمع صوتها وهي توافق عمها.

سكت الجميع.

وحدها لم تسمع هذا الصوت.. كانت في زمن آخر ومكان آخر.

كانت تشيع جنازة حبها.

هي الميت والمشيعون.

وارت حبها الثرى.

نزفت دمعة حبيسة.

رغم تماسكها.. فرت الدموع أمام الأهل.

قالت أختها " وهي ناقمة " : لا أعرف لماذا تبكين ؟ إنه ضائع لم يحدد مصيره.

داخلتها رقة على أختها فتوقفت عن الحديث.

قامت أمها إليها.. ثم توقفت في منتصف الطريق.. شيء منعها من الوصول إليها.. سنوات عمر ابنتها الضائعة..إحساسها بحب ابنتها لمن ظل يواصل مسلسل الخداع حتى النهاية.

ضعفها كأم وانعدام القدرة على قطع الحبل وإنقاذ ابنتها.

لو كان الأب موجوداً الآن أكان يحدث ما حدث ؟

حين اقتربت من ابنتها دون أن تدري كانت الدموع هي اللغة بينهما.

كل منهما يشكو الدنيا ومرارة الفُقد، فقد الأب وفقد الحبيب !!

انتهى المأتم وتفرق المعزون.

وخلت الجدران إلا منها.

ففي صباح ليل العزاء لا نجد من يمد يد المواساة.

الأخوة ذهبوا إلى مدارسهم.

والأم سعت إلى المصنع.

فصاحبة المصنع لا ترحم.

والميزانية المرهقة لا تحتمل خصم أو حرمان من العمل.

وزميلات المصنع لديهم نفس النظرة والتساؤل، متى ستفرحين بابنتك ؟

"تقول زميلتها في العمل : الخطوبة الطويلة مملة.. ونهايتها دائماً حزينة ".

قالت في حسم – لتسكت البوم الشارد، والهمهمات الخافتة من حولها : "لقد انتهى الأمر وغداً ستلتقي ابنتي بمن يقدرها".

أمنت العاملة التي بجوارها – وهي تتناول منها الثوب الذي

أنهت خياطته – على كلامها.. وقصت عليها قصة ابنة صديقتهما التي ما إن تركها خطيبها إلا وتزوجت وسافرت مع زوجها إلى بلاد "بره".

أما هي صاحبة المأتم.. فلم تستطع الذهاب إلى عملها.

جلست في البيت.. تقرأ قصيدته الأخيرة التي اتهمها فيها بأنها السبب.. " ألقت بايامي ومرتِ عليها بأقدام ثقيلة ".

كيف يرتدي ثوب البراءة ويتهمني بالجحود ؟

كيف لا يرى ما هو فيه من ضعف وضياع ؟!

تذكرت لحظات الحب بينهما والعهد الذي ردده حين بكت على صدره.. خوفاً من الوداع " لا تخافي فأنا معك وسأكون وبأي صورة.. سوف أكون بجوارك "

قطعت أختها أحزانها الخبيئة – عند رؤيتها – وقالت : " ألن تنتهي من هذا الموضوع " ؟

قالت ودموعها تسبقها : " كيف أهون لديه " ؟

لو كان يهتم بك لاهتم بمستقبله وحياته ولكنه لا يملك القدرة على النجاح في أي شيء ؟

قالت لنفسها : لماذا لم يصل إلى ما خططنا له من نجاح وعمل.. لماذا يتخلى عني ؟

فاجأها إحساس بالعطف عليه.. تمنت لو رأته الآن !!

كيف هو ؟ ماذا يفعل ؟ هو من فقد كل شيء. الجامعة.. العمل.. والآن هي.

انتابها ندم شديد على موافقتها لعمها على قطع الصلة.

أرادت أن تذهب إليه تواسيه تخفف آلامه شعرت بالحنق على كل شيء.. على أختها.. على نفسها.. على أنانيتها التي جعلتها لم تشعر إلا بما هي فيه.. أحزانها.. سنين عمرها الضائعة.

أما هو من فقد كل شيء حتى حبها.. لا تشعر بأحزانه وتعاتبه من أجل قصيدة.

باغتها أن حبه يعود بقوة.. يتدفق من جديد.. شعرت بنبض قلبها يعود إليها.. يردد اسمه كما اعتاد أن يفعل.. القصيدة تدور حول العتاب لا الهجر !!

إذن هو من ينتظر عودتها.. ينتظر غفرانها.. عليها أن تتحمل فشله في الجامعة والعمل.. عليها أن تتحمل انعدام القدرة والحيلة.. فقدان الأمل في الوصول إلى الحياة التي تريدها.. ويظل هو فارسها وحبيبها.

سوف تذهب إليه.. تبدي ندمها وتعلن عصيانها لعمها.

وتقف كما اعتادت... وحدها في وجه الريح.

أخذت ترتدي ثيابها.

وأختها تسألها إلى أين ؟

لم تكترث.. أكملت زينتها .. وخرجت تسعى إليه.

في رحلة بحث عن أجزائه المتناثرة عَبر سنوات العمر الضائعة.. سوف تجمع الأجزاء من جديد وتبدأ الحياة مرة أخرى.

تعرف مكانه " كافيه الانترنت " مكانه المفضل.

اخترقت الشوارع وهي تستعيد الحب الذي كان.

واصلت السعي وهي تحبط مكائد عمها في إبعادها عمن تهواه.

حدثت نفسها بكل الأماني الآتية.

اقتربت من الكافيه.. أخذها القلق ألا يكون موجوداً.. ستنتظره.. لا يهم كم تنتظر عمرها كله له.

رغم الزحام وتشابه الرؤوس العاكفة على الأجهزة.

ورغم اتساع المكان وتعدد المداخل والمخارج.. رأته من بعيد.. بكتفه المنحني.. وقميصه الزهري.. وشعره المسترسل.. اقتربت منه..

وجدته منهمكاً في تبادل الحديث عن طريق الشبكة العنكبوتية.

أدركت أنه لا يشعر بوجودها.

جلست خلفه تراقبه منتظرة نهاية الحديث.

لمحت الأسماء المتبادلة عبر الحديث الجاري بين جهازين أحدهما أمامه تراه.. والآخر لا تعرف مكانه.. قد يكون بجوارها، أو في بلد آخر أو عبر الحدود والقارات المختلفة.

أماكن وأزمان لا تعرفها.

أيقنت أن الطرف الآخر فتاة.. أخذتها الغيرة.. لكنها لم تهتم فهي تعرف انتشار تلك الأحاديث وعدم جديتها.

حاولت جذب انتباهه في صوت متردد أصدرته.. لم يلتفت.

سعلت بشدة !! لم يهتم.

أيقنت بعبثية الانتظار.. اقتربت منه أكثر وجدته يطلب صورة للمتحدثة.. توقفت.

في اللحظة التالية.. امتلأت الشاشة بصورة فتاة أذهلها جمالها.

أصدر هو صوتاً مسموعاً دهشة لجمال الفتاة.. بشعرها الناعم المسترسل، بعينيها الواسعتين.. شفتيها الممتلئة بالرغبة والحذر.

بنظرتها الموحية بأشياء شتى !!

تجمد الزمن بها.

عادت سنواتها الضائعة تعاتبها، ها هو حبيبها قد أبدلها بصورة.

في بعد عن الزمان والمكان بحثت عن منفذ للخروج.

تعددت أمامها المخارج.

أربكتها كثرة الأبواب.

أسرعت إلى المدخل الأول.. مضت في ردهة طويلة.. بعد وقت طويل من السعي عادت إلى منتصف الحجرة المليئة بالأجهزة الالكترونية.

أسرعت الخطى إلى المدخل الثاني.

الثالث أعاداها إلى منتصف الحجرة ايضاً.

وقفت حائرة، أمامها عدة مخارج أو مداخل لم تعد تعرف.

أربكتها الاتجاهات المفضية للاشيء !!

في فراغ ممتد وقفت.. خائفة.. ضائعة.

وجدت كرسياً خالياً.

جلست أمام الجهاز الصامت ذو الشاشة الزرقاء.. نقرت الآلة، تحركت الشاشة، ظهرت عدة اختيارات.. نقرة أخرة.. ادخلت الاسم وكلمة المرور.

لديها عدة اسماء، اختارت اسماً.

طلب أحدهم أن تحاوره.. نقرة أخرى على الزر أدخلها إلى عالم مجهول.

كل ما فيه حقيقي وغير حقيقي في آن واحد.

يتلاشى فيه المنطق وتتماهى فيه حدود الزمان والمكان.

دار حديث بين الآلتين.. أحدهما أمامها تراه والآخر لا تراه.. قد يكون بجوارها أو في بلد آخر أو عبر الحدود والقارات في أماكن وأزمان لا تعرفها.

هي وحبيبها ضمهما المكان من جديد كل في اتجاه، فقد حقق فتاها الوعد الممتد في الزمان.

وكان بجوارها.. كما وعد !!! وباي صورة... !!!

في ذروة تبادل الحديث، توقف السعي عن إيجاد مخرج.

روت لمحدثها قصة حبها الفاشل.

وجدت العزاء يتسرب إليها حين طلب الآخر صورة لها.

أتاها أنها نسيت للحظات لما أتت إلى هنا.

واستمر الحديث اللانهائي بين الآلتين في اتجاهات شتى لا تفضي إلى شيء.

النهايات البعيدة

أعاد ترتيب وضع الكتب وانهمك في قراءة عناوينها.. حصل عليها من بائع "الروبابكيا" اكبر مصادره للكتب القديمة والمجلات.

شمل المجموعة الجديدة بنظرة سريعة، أدرك انها ستعجب جاره الشاب، غاوي قراءة، يجيد الإنجليزية، يحرص على اقتناء الكتب.

وهو ينقل مجموعة أخرى من الكتب الثقافية إلى ركن بعيد فى محله الضيق، تذكر فرحته الطفولية يوم عثر مصادفة على مدونة "جستنيان" للقانون الروماني.

أراد إتحاف الأستاذ علام بها.. في الدهشة المرسومة على وجه الأستاذ علام اختفت فرحته. تضاءل حجمه أكثر، تبدت قامته القصيرة وساقيه المقوستين عائقان عن فهم هذا العالم أستاذ علام المحامى يجهل مدونة "جستنيان" !!.

تنهد فى صمت.. ابتلع دخان السيجارة، سعل بشدة، واصل ترتيب الكتب، والأفكار تزدحم عليه، مظهره الفقير، شعره الأشيب، اندفاع ساقيه فى اعوجاج للأمام.. وانكماش حركته المحدودة.. عذاب روحه الهائمة فى آفاق بعيدة وحدود غير مرئية.

بداية عمله كساع فى مكتبة حكومية لا يدخلها أحد، كشفت له عن هيامه بعوالم الكتب المختلفة، اسعدته الفكرة ؛ افتتاح محل، اتخاذ الكتب سلعة.. أشعره ذلك بالصلة، بالامتداد فى المكان والزمان.

مع الأيام اكتسب الخبرة.. أدرك الفرق بين كتاب وآخر، تحديد قيمته، تاريخ طباعته، نوع التجليد، رائحته، بمقدرة عجيبة يفرز المجموعة الكبيرة فى دقائق قليلة.. يحدد لكل نوع زبونه الخاص.

حاصرته الوحدة.. التمس في قصص العظماء موضعاً. كان صديقهم المفضل يفضون إليه بأدق الأسرار والأفكار .. يشير عليهم بالرأى.

كم اصطحب من ملوك وأمراء، فرسان ونبلاء، حتى الشحاذين لم يضن عليهم بصداقته يعرف مصيرهم.. يستبد به القلق لنهايتهم الحزينة، يغلفه حزن خاص دفين، ينتحب فى صمت.. آمالهم التي تخيب ينكسر لها.. لذتهم المنصرمة يتحسر على فواتها، تفاصيل حياتهم يمتلكها ولا يبوح بها لأحد.

وفى الليل حين يسطو السكون على شارعه.. ويأوي كل إنسي إلى منزله، يترك أصدقائه، وقبل أن يمضى وحيداً إلى حجرته، يطوف الشوارع، فى النهاية يمتد إلى فراشه البارد، وحجرته الخالية من أى إنسى، ينام مكدورا، فالخلاء ممتد، موحش، والونيس مفتقد، ودفء الحياة مبتعد.

كم لاح له خاطر همجي، يهاجمه فى وحدته، فاغراً فاهه كوحش أسطورى، آتاه من ألف ليلة وليلة، يدفعه دفعاً إلى إنهاء حياته : تخلص من الهم المقيم لن يشعر أحد، ستمضى الأيام إلى منتهاها.. لن يتوقف أحد ليسأل ؛ أين عم عبد الحليم ؟.. بائع الكتب.. كان هنا.. أين ذهب ؟.

قد يتردد البعض على المحل لشراء مجلة أو كتاب، سيحزن على ضياع الوقت وفوات الفرصة، ويبحث عن بائع آخر. ولن يتذكر عم عبد الحليم.

تقلب فى فراشه مرات، ضاق بجسده ؛ وبحسار جسده لروحه.

أراد الفكاك. السنون تنهش فيه، الوحدة تأكله، برودة السرير توصدِ أمامه أبواب الحس والشعور. يموت من البرد والوحدة وهذا الفراغ من حوله. انتابته نوبة بكاء، تساءل فى صمت لما يضن عليه الزمان بالنهاية ؟.

إنه يسلم نفسه طواعية، لا يرغب في الحياة، هذا العبء الشديد لا يحتمله، ينوء به جسده الهزيل.. لما يتأخر الموت هكذا ؟

فليأتي بيده الحانية القوية، يرحمه من شيخوخته، من ضحكات الصغار على ساقيه المندفعتين للأمام، من تجاهل الكبار، من هذا الصمم الزاحف ببطء على أذنيه.. إنه يريد النهاية.. ولكنها ويا للغرابة تبدو بعِيدة.

تنهد في حزن، ومضت سيرته كما هي، لم يستطع التخلص من حياته، ومضى تحمله قدماه من عمله الحكومي إلى محله حتى يأتي الليل وتستيقظ هواجسه وتهاجمه في وحدته الأبدية.

ذات يوم خطا إلى المكتبة التي لا يدخلها أحد.. فوجيء بشاب في مقتبل العمل يجلس على كرسيه، أخبروه أنه سيساعده، أدرك أنه يأخذ موضعه، حاول مدير المكتبة أن يكون مرحاً، أخبره بأنه على الرغم من الستين إلا أنه في كامل صحته، افتر ثغر المدير عن ابتسامة.. بدت بلهاء.. في جمود وجه عم عبد الحليم عن اتخاذ ملامح محددة، أدرك المدير أن الأمر لا يستحق أدار ظهره وتركه واقفاً في مكانه.. تنهد عم عبد الحليم وانقلب راجعاً إلى محله.

لم تكن به رغبة لشيء.. ضاق بكتبه القديمة ومحله الضيق.. وبالناس.. وأصدقائه الأبطال الذين عجزوا عن مساعدته.. أدرك أنه سيظل وحيداً.. يحاصره جسده، وتحاصره الآن الستون عاماً.. لا مفر.

لم يعد لديه إلا هذا الرصيف، قد تأتي النهاية التي يسعى إليها وهو جالس على الرصيف يعيد وضع كتبه القديمة، في اللحظة التالية باغته شعور مريح واستسلام تام، حين يأتيه الموت سيكون بين الناس.. بين كتبه وأبطاله وأصدقائه.. اشتهى في هذه اللحظة أن يموت فعلاً، كما يحلم، هذا أفضل من الموت وحيداً.. على فراش بارد.. في حجرة خالية من أي إنسي.

في اليوم الهام من حياته وجد شاباً في مقتبل العمر واقفاً أمام المحل.. تذكره بعد لحظة اندهش، أبدى ترحاباً شديداً، قامته القصيرة حالت بينه وبين عناق الوافد عليه، غريمه في المكتب.. أخفى غضبه المكتوم بحركة عصبية في مساحة النصف متر المتبقية من محله الضيق هيأ مكاناً " مجموعة كتب " اتخذها الشاب مجلساً.

أخبره بكلمات قصيرة كاعتذار عما حدث : " يا عم عبد الحليم لك مستحقات لابد أن تأتي لتأخذها ".

مستحقات.. مكافأة نهاية الخدمة، بدت أشياء غريبة، هل له حقوق ؟ هل تذكرته الحياة

مضى إلى عمله القديم.. تأتيه صدى كلمات قليلة متبادلة مع الآخرين، وذكريات مضت وأشخاص ولوا.

خلت حياته من هذا السعي.. افتقد ارتقائه السلالم.. مداعبات الموظفين.. حكاياتهم التي لا تنتهي.. وقوفه أمام الباب الذي لا يدخله أحد.. تنظيمه للكتب داخل المكتبة.. كل ذلك تلاشى وانتهى.

استلم الشيك ووقف حائراً.. خلع نظارته السميكة.. نفخ في زجاجها.. مسحها بطرف قميصه.. نظر من جديد.. رأى الأرقام توحي بأشياء خفية.. تحسس الشيك.. ليس له ملمس النقود.. لكنه يحتويها.. هذا أكيد !! تأكد من توقيع مدير الإدارة.

تخبط في أفكاره.. ماذا يمكن لهذا المبلغ أن يفعل ؟!

هل أعوامه الستون تحتاج له ؟

ألم يكن من الأفضل لو حصل عليه في بداية حياته ؟

ظل أكثر من أسبوع متردداً، هل يصرف الشيك أم يدعه نائماً كالفتنة ؟

هل للنقود رائحة ؟ لابد من أن تكون كذلك، فما معنى الصداقة المفروضة عليه هذه الأيام.. البواب صادق يجاوره اليوم بأكمله.. يحرص على قضاء مطالبه.. يربط له مجموعة من الكتب ويضعها في أماكنها.. هل أدرك شيخوخته وضعفه الآن.. فيما سبق لم يكن يجالسه.. يناديه فيتعلل بانشغاله في قضاء حاجات أصحاب الشقق، مسح سلالم العمارة.. أما الآن فهو بجواره دائماً.

حتى الزبائن صارت تهش له، وتجادله في السعر كأنه لم يعد في حاجة للنقود !!

شيء يتغير حوله وبداخله.. البواب يحادثه باستمرار عن الوحدة وضرورة اختياره لبنت الحلال.. هفت نفسه إلي ونيس.. أفضى بما في نفسه لصديقه البواب.. فرك البواب يديه، فما خطط له ودبر يوشك أن يحدث.. قال بحسم : " عندي طلبك " !!.

توجس منه شراً.. هل تراه يرشح له عجوز.. في قرارة نفسه أيقن أن صادق يعرف طلبه فعلاً. فلقد ألمح رؤيته له وهو يلتصق

بعينيه بالشابة الطرية الغضة التي تخرج مع زوجته فيما بعد أخبره صادق أنها قريبته، اشتهى بعد نسيان الاشتهاء هذه الشابة الصغيرة.

أن يكون له أليفاً يأنس إليه.. تجمدت فكرة في عروقه.. ثم تدفقت بقوة في شرايينه.. فقد غداً يمتلك المال.. فما يمنعه.

انتابت البعض دهشة لما سمع، عبد الحليم بائع الكتب القديمة زفافه اليوم.. اهتم الجميع بما حدث.. أصبح عبد الحليم مجالا للتندر والسخرية والحكايات القديمة عن الشيخ الهرم وزوجته الشابة وليلة الزفاف الموعودة.

قال جاره الحلاق إنه محدود الحياة، حياته المحل.. أكداس الكتب، مساحة النصف متر التي يتحرك فيها، ومرة واحدة يقفز كل الحدود إلى عالم فتاة يحكي جسدها أسطورة عن الحياة وكيف تكون !!

مضت الأيام.. اعتاد الناس الحكاية.. لم تعد تغريهم بالحديث.. وجلس عم عبد الحليم يرتب بعض الكتب.. يفكر في ليلته الأولى مع عروسه.. تناسى ليلتها ضآلة حجمه وقصر قامته واندفاع ساقيه إلى الأمام.. نسى حصار الجسد لروحه.

عاش في لحظة اقترابه من جسدها البض، احتواها بعينيه، أراد أن يلمسها تردد كثيراً وضع يده على ذراعها العاري، كان استسلامها لا مبال، ملمس جسدها غريب.. تذكر لحظة امتلاكه

الشيك، لم يشعر بملمس النقود، هذا الجسد يتأبى عليه، لا يطيعه، يريد أن يشبع شوقه وظمأه، حاول أن يستعيد الخيال الذاهب، أعياه السعي وبذل الجهد.

حين تناسى ذاته بين أنفاساها وتدفق عمره في لحظات عرف أخيراً طعم الحياة !!

أدرك في تلك اللحظة حقيقة الأمر، وجدوى الحياة، وروعة الموت في إبطائه عليه، وترك حياته التي كان يسلمها طواعية للموت في كل ليلة ويدعوه.. وكان يُعاني من تأخره عليه.. أدرك أن كل ذلك يهون من أجل تلك اللحظة.. انتهى حصار الجسد.. وهامت الروح في عالم حقيقي بلا قيود.

لولا تلك الشيخوخة التي يئن من وطأتها.. لنسى تماماً سؤاله الخالد عن النهاية..

ولولا النظرة الظامئة في عين زوجته الشابة التي تسلم له جسداً بلا روح وهو يحاول أن يعيد الكرة ولا يفلح، لغاب السؤال تماماً عن ذهنه.. لكنه يلوح له دوماً مرسوماً على وجهها وهي تشيح عنه ممتداً بطول جسدها الفارغ.. حاول الهروب من السؤال انتظر تكرار اللحظة وتدفق الحياة.

في كل مرة يعاوده السؤال – بقسوة مع برودة الجسد والفشل المتكرر – لماذا تبدو النهاية رغم ندائنا لها..

وتلهفنا عليها...

ورغبتنا الحقيقية في الاستسلام لنشوتها..

والتخفف من عبء الحياة في الوصول إليها...

لماذا تبدو النهاية مهما حققنا من أحلام ورغبات.. ويا للغرابة.. بعيدة !!

المحتـوى

الجسر ٥
الطريق ١٣
الرسالة الأخيرة ٢١
الموت جوعًا ٣١
كما يقولون ٣٩
فى حضن السماء ٤٩
مصير طفل ٦٥
الأرواح السبعة ٧٥
سيد الأدلة ٨٣
اللمسة الأخيرة ٩٧
بلا ثمن ١٠٥
السحاب الأسود ١١٧
نشارة خشب ١٢٧
ارتباك الاتجاهات ١٣٥
النهايات البعيدة ١٤٧